رواية

فرنسواز ساغان

في شهر، في سنة

ترجمة: محمد فطومي

مكتبة #920

مكتبة | سُر مَن قرأ

في شهر، في سنة

رواية

Author: **Françoise Sagan**	اسم المؤلف: **فرنسواز ساغان**
Title: **Dans un mois, dans un an**	عنوان الكتاب: **في شهر، في سنة**
Translated by: **Muhammad Fatumi**	ترجمة: **محمد فطومي**
Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2019**	الطبعة الأولى: **2019**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Julliard, 1957

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

مكتبة ٢٠٢٢ ٨ ١٦
t.me/t_pdf

فرنسواز ساغان

مكتبة | سُر مَن قرأ

في شهر، في سنة

#920

ترجمة : محمد فطومي

مكتبة
t.me/t_pdf

مقدّمة المُترجم

في رواية قصيرة وبلغة غير مُتكلّفة وبأسلوب أنيق أخّاذ، أقحمت فرنسواز ساغان شخصيّاتها في صراع ضدّ القدر السّاخر والصّدفة الماجنة والحبّ المُستحيل، مُتسلّحين فقط بالعزلة والوهم والأمنيات والعبث. بهدوء كبير تركت ساغان شخصيّاتها تبحث عن السّعادة الضّائعة، كلّ على طريقته. فكانت لوحة روائيّة خفيفة مُحكمة وممتعة، امتزج فيها الخيال بالواقع، الحُلم باليأس، التراجيديا الورقيّة بالمأساة النفسيّة، عمق الفلسفة بالجملة السرديّة الأنيقة التي تتميّز بها ساغان. تلك الكاتبة التي تلتقط من التّفاصيل والأوضاع النفسيّة ما لا يخطر لك أنّه قابل للتحويل إلى كتابة. وتذهلك بتشابيهها التي لا شيء يشبهها وقدرتها على الغوص في الذّات الإنسانيّة، حتّى إنّي وأنا أترجمها تجدّد في ذهني خاطر قديم كان قد راودني عندما قرأتها للمرّة الأولى منذ سنوات. قائلاً: إنّها امرأة يتحوّل المرء أمامها إلى فضيحة!

الطّريف في النصّ دون استباق لما سيكتشفه القارئ بنفسه هو الجوّ الباريسي الذي تدعوك إليه الكاتبة، مانحة إيّاك فرصة مشاركة الشخصيّات أماكنهم ونزهاتهم ومجالسهم وحواراتهم كأنّك واحد منهم. ثمّ الأفكار المُبتكرة التي سيلهمك إيّاها وأنت ترى العلاقات تُبنى أمام عينيك والخيبات تتالى تباعاً كلّما سعت الشخصيّات إلى ما هو أبعد من السّعادة: الوعي بالسّعادة.

لوهلة سيبدو أنّ الإنسان قد خرج من قالب الباحث عن السّعادة

ليصبح هو نفسه سعادة غيره وقد يتحوّل أيضاً لأسباب بسيطة إلى مأساة غيره ومصيره. وأنّ الشخصيّات تملك كلّ مقوّمات السّلام والسّعادة لو لم يكن هناك توزيع رديء للأدوار في ما بينهم. ليظهر جليّاً أنّ المأساة هي لعبة قدر ساخر يذكّر إلى حدّ بعيد بآلهة إغريقيّة تحكمها رغباتها ومصالحها تلهو بمنح من لا يستحقّ وحرمان من يستحقّ. حبكة مسرحيّة برعت فيها ساغان وهي تقفل على شخصيّاتها في فضاء تراجيدي مُضطرب لم يغب عنه الشّراب والحبّ والحيرة والمجهول.

الفصل الأوّل

دخل برنارد المقهى تحت أنظار روّادٍ عابسي الوجوه بسبب أضواء النيون، ومال على الصرّافة، يُحبّ أمينات المصرف في الحانات، مكتنزات ونزيهات وسابحات في حلم تتخلّله النّقود وأعواد الثّقاب. مدّته بقطعته المعدنيّة دون ابتسامة. بسحنة منهكة. كانت الرّابعة صباحاً تقريباً. كابينة الهاتف قذرة والسمّاعة رطبة. كوّن رقم جوزي وانتبه إلى أنّ سيره القسريّ في أنحاء باريس لم يقده سوى: إلى الآونة التي يصير فيها مُتعَباً كفاية كي يعجز عن أداء تلك الحركات آليّاً. وكان من الغباء بمكان أن يُهاتف فتاة شابّة عند الرّابعة صباحاً. طبعاً لن تلمّح البتّة لفظاظته لكن في هذه الحركة ناحية تُذكّر بـ «الطّفل الفظيع» التي يكرهها. لا يُحبّها، هذا هو الأدهى، بيد أنّه يرغب بشدّة في معرفة ماذا تفعل. لقد أمضى يومه بأسره مهووساً بهذه الفكرة.

رنّ الهاتف. استند على الجدار. دسَّ يده في جيبه ليمسك بعلبة سجائره. توقّف الرّنين وجاءه صوت رجل نائم: «آلو». بعد لحظة صوت جوزي: «من؟». ظلّ جامداً، مرعوباً خشية أن تتكهّن بأنّه هو، خشية أن تكون مباغتته قد فاجأتها. كانت لحظة شنيعة، ثمّ تناول علبته من جيبه وأغلق الخطّ. وجد نفسه بصدد المشي على الرّصيف متمتماً بالبذاءات. صوت آخر يكرهه طمأنه في الوقت نفسه: «لكن في النّهاية، هي لا تدين لك بشيء. لم تطلب منها شيئاً. هي ثريّة، حرّة ولستَ حبيبها بصفة رسميّة». لكنّه حدس في نفسه هذا المدَّ من الضّيق والقلق واندفاعه نحو

الهاتف، هذا الوسواس الذي سيصبح أكثر المسائل صفاءً خلال أيّامه القادمة. لعب دور الرّجل الشابّ، تحدّث إلى جوزي عن الحياة، عن الكتب، أمضى معها ليلة، كلّ هذا على وتيرة تسلية. بذوق عالٍ. ويجدر القول إنّ شقّة جوزي تمنح ذلك حقّاً. عليه الآن العودة إلى بيته، سيجد روايته ملقاة كما اتّفق على طاولة العمل. وعلى سريره تنام زوجته. تنام دائماً في ساعات مماثلة، وجهها الطفوليّ الأشقر من جهة الباب كأنّها تخشى عدم عودته بتاتاً، تنتظره بقلق في نومها كما في يقظتها طيلة اليوم.

وضع الشابّ السمّاعة وسيطرت جوزي على حركة الغضب التي راودتها وهي تراه يقفل الخطّ ويردّ كأنّه في بيته.

- لا أدري من كان. قال متجهّماً، لقد أغلق الخطّ.

- لِم «هو» إذاً، سألت جوزي.

- الرّجال دائماً هم من يكلّمون النّساء ليلاً. قال الشابّ مُتثائباً. وهم أيضاً من يغلقون الخطّ.

رمقته بفضول متسائلة ماذا يفعل هنا. لم تفهم كيف سمحت له بمرافقتها إلى الآن بعد العشاء ولا لِمَ صعد معها إلى الشقّة. كان وسيماً لكن همجيّاً وغير مُمَيّز. أقلّ ذكاءً بكثير من برنارد، بل حتّى أقلّ إغراءً منه على نحو ما.

جلس على السّرير والتقط ساعته:

- الرّابعة. قال، إنّها ساعة مشؤومة.

- لماذا ساعة مشؤومة؟

لم يُجبها إنّما استدار ناحيتها ونظر إليها بثبات من فوق كتفه. ردّت عليه بنظرته. ثمّ حاولت سحب الغطاء فوقها. لكنّ حركتها توقّفت. فهمت فيمَ كان يُفكّر. رافقها إلى بيتها. أخذها بعنف ونام بجوارها. نظر إليها بهدوء. لا يكترث للفكرة التي كوّنتها عنه. في هذه اللّحظة تحديداً هي له. وما ارتقى إليها ليس الانزعاج إزاء تلك الثّقة، ولا هو السّخط بل شعوراً فائقاً بالإهانة.

رفع عينيه إلى مُستوى وجهها وأمرها بصوت أجشّ بأن تطوي اللّحاف. أزاحته وراح يتفحّصها بأريحيّة. كانت تشعر بالخجل ولا تقوى على الحركة ولا تجد الجملة المُتَحرّرة التي كانت ستتلفّظ بها وهي تستلقي على بطنها أمام برنارد أو أمام شخص آخر. لم يكن ليَفهم، أو حتّى يضحك. في تصوّره هي تخمّن خباياه، كان لديه فكرة مكتملة حولها، راسخة، أوّليّة، لا تتغيّر أبداً. راح قلبها ينبض بقوّة، فكّرت: «لقد ضِعت»، مع إحساس بالانتظار. مال عليها الشابّ بابتسامة غامضة مرسومة على شفتيه. لاحظت كيف اقترب منها دون أن يرمش.

– على الهاتف أن يصلح لشيء ما. قال وهوى عليها فجأة بلهفة. أغمضت عينيها.

«لم يعد في وسعي الاستهزاء بذلك، فكّرت، لن يكون أمراً هيّناً وليليّاً، سيرتبط دائماً بهذه النّظرة، شيء ما في هذه النّظرة».

– ألا تنام؟

فاني ماليغراس أطلقت أنّة.

– إنّه الرّبو. ألان، تفضّل وأحضر لي فنجان شاي.

غادر ألان ماليغراس الفراش المزدوج بعناء كبير وارتدى «الرّوب». الماليغراس كانا جذّابين متعلّقين أحدهما بالآخر سنوات طويلة إلى غاية حرب الأربعين. افترقا خلال أربع سنوات، حين عثرا على بعضهما كانا مذهولَين بالخمسين التي بلغاها. تبنّيا طبيعة مُحتشمة بشكل عفويّ، حياءً مؤثّراً، كأنّ كلّاً منهما أراد أن يُخفي على الآخر وقع السّنين الماضية. غمَرهما أيضاً حبٌّ متّقد للشّباب يمكن القول، إنّ الماليغراس أحبّا حيويّة الشّباب بعاطفة حارّة، وتلك العاطفة تنبغي الإشارة إلى أنّها مُبرَّرة. مُغرمان بها لا للتّسلية ولا ليُسرفا في تلقينها نصائح بلا قيمة، بل لأنّهما اكتشفا قيمتها في سنّ النّضج. اكتشافاً لم يتردّد أيّ منهما في

تجسيد الفرص التي تتاح لهما بفضله، طعم الشّباب يرافقه دائماً ضعف تجاه اللّحم العذب.

بعد خمس دقائق، وضع ألان الطّبق على سرير زوجته ورمقها بشفقة. وجهها المُجَوَّف الدّاكن كان مشدوداً بسبب الأرق. وحدها عيناها ظلّتا بثبات جميلتين، بلونهما الأزرق الرّمادي القاطع، لامعتين وسريعتين.

- أرى أنّها كانت أمسية رائعة. قالت وهي تتناول فنجانها. راقب ألان الشّاي وهو ينزل في حنجرتها المُجعّدة قليلاً. لم يكن يُفكّر في شيء. تحامل على نفسه بمشقّة:

- لا أفهم مجيء برنارد دون زوجته. قال. وجب الاعتراف أنّ جوزي أكثر جاذبيّة هذه الأيّام من أيّ وقت مضى.

- بياتريس أيضاً. قالت فاني ضاحكة.

انفجر ألان ضاحكاً في الوقت نفسه.

إعجابه ببياتريس كان دائماً محلّ تندّر بينه وبين زوجته، ولا يمكنها أن تُقَدّر إلى أيّ مدى أضحت هذه النّكتة قاسية بالنّسبة إليه. كلّ يوم اثنين مباشرة بعد ما يُسَمِّيانه من باب السّخرية صالون الاثنين، كان ينام مرتعشاً! بياتريس كانت فاتنة وعنيفة؛ حين يُفكّر فيها، تفرضُ هاتان الصّفتان نفسيهما على مُخيّلته فيعود في إمكانه تكرارهما إلى ما لانهاية.

«فاتنة وعنيفة»؛ تُخفي بياتريس وجهها المأساويّ الدّاكن حين تضحك لأنّ الضّحك لا يليق بها. تتحدّث عن عملها بسخط لأنّها لم تُفلح فيه بعدُ، لا إنّها حمقاء كما تقول فاني بنوع من الغنائيّة. ألان يشتغل في دار نشر منذ عشرين عاماً، كان يتقاضى أجراً ضعيفاً، مُثَقّفاً ومُتَعلّقاً جدّاً بزوجته. كيف أصبحت «المهزلة بياتريس» هذا العبء الهائل الذي عليه أن يحمله كلّ صباح حالَمَا يستيقظ. هذا الحمل الثّقيل الذي بات عليه أن يسحبه كلّ يوم إلى غاية الاثنين؟ لأنّ بياتريس لها موعد يوم الاثنين مع فاني للقيام بالتّنظيف العامّ للبيت، ذاك الموعد السّاحر الذي

يجمعها بفاني والذي سيلعب فيه دور الفتى الرّقيق الرّوحانيّ الشّارد. كان يُحبّ بياتريس.

- تتمنّى بياتريس الحصول على دور صغير في المسرحيّة القادمة س X... تقول فاني. هل ثمّة ما يكفي من الصّاندويشات؟

الماليغراس كانا عرضة لضغوط ماليّة قويّة لتأمين صالونهما. كان أمراً كارِثيّاً أن تصبح البداية بالويسكي إحدى عاداتهما.

- أعتقد. قال ألان. ظلّ جالساً على حافّة السّرير، يداه تتدلّيان بين ركبتيه النّحيلتين. راحت فاني ترمقه بحنان وشفقة.

- ابن أخيك النّورمندي يأتي غداً. قالت، آمل أن يتحلّى بقلب صافٍ وروح عظيمة وأن تقع جوزي في حبّه.

- جوزي لا تقع في حبّ أحد. قال ألان.

- ربّما حاولنا النّوم؟

أزاح الطّبق عن رُكبَتي زوجته، قبّلها على جبينها وعلى خدّها وعاد إلى النّوم ثانية. أحسّ بالبرد رغم السَّخّان. كان رجلاً مُسنّاً يشعر بالبرد. والأدب برُمّته لم يكن لينفعه بشيء.

في شهر، في سنة، كيف نتعذّب
إلهي، يا لهذه البِحار التي تفصلني عنك،
ليتكرّر النّهار ولينتهِ النّهار
دون أن يتمكّن «تيسوس» أبداً من رؤية «بيرينيس»؟

بياتريس كانت في قميص نوم أمام مرآتها تتأمّل نفسها.

تسقط الأبيات من ثغرها كزهور الحجارة. «أين قرأت هذا إذاً؟»؛ وأحسّت أنّها مأخوذة بحزن عميق وبغضب حقيقيّ. مضت خمس

سنوات وهي تُنشد بيرينيس Berenice[1] لزوجها السّابق، والآن هي تنشدها لمرآتها. وودّت لو أنّها كانت في مواجهة ذلك البحر المُظلم المُزبد الذي كانت عليه قاعة المسرح ولو أنّها قالت ببساطة: «في خدمة السيّدة»، لو لم يكن هناك بالفعل ما يُقال غير ذلك.

«أفعل أيّ شيء لأجل هذا» قالت لصورتها، والصّورة ابتسمت.

أمّا ابن الأخ النّورمندي، الشابّ إدوارد ماليغراس، فقد ركب القطار الذي يُفتَرض أن يُقلّه إلى العاصمة.

1- بيرينيس: كوميديا تراجيديّة من 5 فصول ألّفها جون راسين وعُرِضت لأوّل مرّة في فرنسا سنة 1670.

الفصل 2

نهض برنارد للمرّة العاشرة خلال الصّباح، خطا نحو النّافذة واتّكأ عليها. لم يعد قادراً. الكتابة تهينه. ما يكتبه يهينه. وهو يقرأ صفحاته الأخيرة اجتاحه شعور لا يُحتَمل بالمجانيّة. لم تكن تحتوي على شيء ممّا أراد قوله. لا شيء من تلك الضّرورة التي اعتقد أحياناً أنّه أمسك بها. يعيش برنارد من كتابة ملاحظات نقديّة في المجلّات والجرائد نظراً لطبيعة عمله كقارئ في دار ألان للنّشر. أصدر منذ ثلاث سنوات رواية وسمها النقّاد بالـرّتيبة مع «بعض الخصائص البسيكولوجيّة». يرجو أمرين: كتابة رواية وجوزي مُؤخّراً. بيد أنّ الكلمات ما زالت تصرّ على خيانته وجوزي اختفت مأخوذة بواحدة من نزوات الهيام تجاه بلد أو شابّ – لا أحد يدري – في وسع ثروة والدها أن تتيحه لها فوراً.

«ألست بخير؟»

عادت نيكول بعده. طلب منها أن تدعه يعمل إلاّ أنّها لا تقدر على عدم الدّخول عليه في مكتبه دون توقّف مُتعلّلة بأنّها لا تراه سوى في الصّباح. يعلم لكن لا يمكنه أن يُصدّق. كلّ يوم أكثر من الذي يسبقه. الآن بعد مُضيّ ثلاث سنوات يبدو له هذا مرعباً. لم يعد يشعر بميل ناحيتها. ما يُحبّه يختبئ في ذاكرته بكلّ بساطة، إنّها صورته أيّام حُبّهما، هذا النّوع من الحسم الذي لاح له وهو يُقرّر الزّواج بها، هو الذي – منذ تلك الفترة – لم ينجح في اتّخاذ قرار كبير واحد مهما كان نوعه.

– لا. الأمور لا تسير البتّة. ضاعت مثلي. بأمل ضعيف في تقدّمها.

- لكن، بلى، أنا مُتأكّدة.

هذا التّفاؤل الحنون المُتعلّق بشؤونه يفوقه أكثر من أيّ أمر آخر. لو أنّ جوزي أو ألان من قال له ذلك لكان استلهم من كلامهما ثقة ما. لكنّ جوزي لا تعرف شيئاً، اعترفت بذلك وألان - وإن كان مُحفّزاً- فإنّه مُحتشم إذا تعلّق الأمر بالأدب، «المهمّ هو ما سنراه لاحقاً» يقول. ما الذي قد يعنيه ذلك؟ يتظاهر ألان بالفهم. في الحقيقة كلّ تلك الرّطانة تتجاوزه. «أن تكتب هو أن يكون في حوزتك قلم وورقة وظلّ فكرة تنطلق منه» تقول فاني. يُحبّ فاني. يحبّهم جميعاً. لا يُحبّ أحداً. جوزي تضايقه. لا بدّ منه بالنّسبة إليها. هذا كلّ ما في الأمر. أداة تقتل بها نفسها.

نيكول كانت دائماً إلى جانبه. ترتّب. تقضي وقتها كلّه في التّنضيد وحيدة طيلة النّهار. لا تعرف باريس ولا الأدب؛ كلاهما يثير لديها الإعجاب والخوف. مفتاحها الوحيد إزاء كلّ هذا هو برنارد لكنّه يهرب منها. كان دائماً أذكى وأكثر جاذبيّة منها. كان مطلوباً، في الوقت الحاضر لا يُمكنها أن تنجب أطفالاً. لا تعرف أحداً عدا «رووان» وصيدليّة والدها. قالها لها برنارد مرّة ثمّ توسّل إليها كي تغفر له. في تلك اللّحظة كان ضعيفاً كطفل يوشك على البكاء. لكنّها تُحبّه أكثر وهو يُمارس عليها قسوته المُنظّمة. لا تلك اليوميّة المؤلمة عندما يغادرها بعد الفطور، يُقبّلها شارداً ولا يعود إلّا مُتأخّراً جدّاً.

قلق برنارد كان دائماً هديّة مُدهشة بالنّسبة إليها. النّاس لا يتزوّجون الهدايا. لا يُمكنها أن تعتب عليه.

راح يرمقها. كانت جميلة كفاية وحزينة كفاية.

- هل تأتين معي هذا المساء لزيارة الماليغراس؟ قال برقّة.

- أرغب بشدّة. قالت.

طوّقتها سعادة مفاجئة، وساور برنارد النّدم، لكنّه ندم قديم، مُستَهلك، حاضر دائماً. ثمّ إنّه لن يخسر شيئاً باصطحابها، لن تكون جوزي هناك.

لم تكن جوزي لتعيره أدنى اهتمام لو كانت زوجته برفقته. أو لعلّها لن تكلّم سوى نيكول. لم تكن تنقصها تلك الطّيبة المُزَيّفة، لكنّها تجهل بأنّها عديمة الفائدة.

- أمرّ لاصطحابك حوالي التّاسعة. قال.

- ماذا تفعلين اليوم؟

ثمّ حالما انتبه إلى أنّها لن تجد ما تردّ عليه به:

- حاولي أن تقرئي هذا المخطوط لأجلي، لن يسعني الوقت أبداً.

يعلم جيّداً أنّه لا جدوى من ذلك. نيكول تحترم الأشياء المكتوبة، نوع من الإعجاب بما يُنجزه الآخرون، مهما كان عقيماً، ما يجعلها عاجزة تماماً عن تكوين أدنى رأي نقدي. بالإضافة إلى شعورها بأنّها مُرغمة على قراءته آملة أن تكون بذلك قد أسدت إليه خدمة.

- تحسب أنّها ضروريّة، فكّر باحتقان وهو ينزل السُّلّم، النّساء الكبيرات حمقاوات...

في الأسفل أمام المرآة باغت ملامح وجهه الثّائرة وانتابه الخجل. كلّ هذا لم يكن سوى مُجرّد خسارة فظيعة.

لدى وصوله إلى ناشره، وجد ألان وقد بدا مأخوذاً بالإثارة.

- هاتفتكَ بياتريس، وترجو أن تُكلّمها فوراً.

كان لبرنارد علاقة غائمة ببياتريس. يُكنّ لها بقيّة حنان يصاحبه نوع من التّنازل الذي يبهر ألان بشكل ملحوظ.

- برنارد؟(جاء صوت بياتريس كما في تلك الأيّام العظيمة، أنيقاً جدّاً.) برنارد هل تعرف س...؟ مسرحيّاته صدرت عندك أليس كذلك؟

- معرفة سطحيّة. قال برنارد.

- تحدّث لفاني بخصوص مسرحيّته القادمة، يجب أن ألتقي به وأحدّثه. قم بذلك لأجلي برنارد.

كان في صوتها ما يذكّر برنارد بالأيّام الأجمل في شبابهما، بعد

الحرب، بعدما ترك كلاهما مسكناً لبورجوازيّ حسّاس، وجدا نفسيهما في رحلة بحث عن مئة فرنك لتأمين العشاء. أجبرت بياتريس مرّة صاحب حانة اشتهر ببخله على أن يصرف لهما مُقدّماً على الخدمة بألف فرنك. بفضل الصّوت لا غير.

العزيمة التي تبلغ هذا الحدّ، مؤكّد أنّها أصبحت أمراً نادراً.

- سأتصرّف، سأهاتفكِ عند المساء.

- عند الخامسة. قالت بياتريس بحزم. برنارد أحبّك، أحببتك دائماً.

- سنتان. قال برنارد ضاحكاً.

ضاحكاً دائماً، التفت نحو ألان مُفاجئاً التّعبير على ملامحه، سرعان ما أشاح عنه. صدح صوت بياتريس في القاعة، تابَع:

- حسناً. على كلّ حال، أراك هذا المساء عند ألان؟

- أجل، طبعاً.

- هو الآن قريب منّي، تريدين أن تكلّميه؟ قال برنارد. (لا يدري لِمَ طرح هذا السّؤال.)

- كلّا، ليس لديّ وقت. قل له إنّي أقبّله.

يد ماليغراس كانت ممدودة نحو السمّاعة. برنارد الذي يدير له ظهره لم يرَ غير هذه اليد الأنيقة ذات العروق النّافرة.

- أبلّغه. قال، إلى اللّقاء.

ارتخت اليد. وانتظر برنارد لحظة قبل أن يستدير.

- تقبّلُك. قال، أخيراً بات لدَيها أحد ما في انتظارها.

أحسّ بأنّه تعيس جدّاً.

ركنت جوزي سيّارتها أمام منزل ماليغراس، شارع تورنون Tournon.

كان ليلاً وأنوار الشّارع تجعل الغبار يتألّق فوق غطاء المُحرّك والبعوض اللّاصق على الزّجاج.

– في النّهاية، لن أذهب معك. قال الشابّ، ليس لَدَيّ ما أقوله لهم، سأذهب للعمل قليلاً.

أحسّت جوزي في آن بأنّها مرتاحة وخائبة. الأيّام الثّمانية التي قضتها معه في الرّيف كانت بالنّسبة إليها خانقة إلى حدّ كبير. كان صمتُه مُطبَقاً بصورة مبالغة. عدا طمأنينته ونصف همجيّة انتهى الأمر بأن يرعباها بقدر ما يفتنانها.

– حالما أُنهي عملي سأمرّ بك. قال الشابّ، حاولي أن لا تعودي باكراً.

– لا أعلم إن كنت سأعود. قالت جوزي مُغتاظة.

– أخبريني إذًا، ردّ الشابّ، لا طائل من المجيء لأجل لا شيء، ليست لَدَيّ سيّارة.

تجهل فيمَا يُفكّر. وضعت يدها على كتفه:

– جاك. قالت.

حدّق فيها وجهاً لوجه، بهدوء. رسمت وجهه بأناملها وفرك جبينه:

– أعجبكِ؟ قال بضحكة خفيفة.

– غريب، يعتقد أنّي أحمله تحت الجلد أو شيئاً من هذا القبيل. جاك. ف...، طالب طبّ وقائد جوقتي. كلّ ذلك مضحك. إنّها ليست حتّى مسألة جسديّة، لا أدري إن كان بريقي الذي يعكسه عنّي هو الذي يجذبني، أو غياب الانعكاس، أم هو في حدّ ذاته. لكنّه عديم القيمة. مؤكّد أنّه حتّى غير قاسٍ. هو موجود، هذا هو التّعبير.

– أنت تعجبني كفاية. قالت، ليس شغفاً بعد لكن...

– الشّغف الكبير موجود. قال بخشونة.

– إلهي، فكّرت جوزي، إنّ فتاة شقراء وغير مادّيّة مولَعَةٌ به، أيُعقَل أن أحسده؟

– حظيتَ بشغف كبير؟ قالت.

مكتبة
t.me/t_pdf

- ليس أنا، إنّه أحد رفاقي.

انفجرت ضاحكة، نظر إليها متردّداً إن كان عليه أن يشعر بالخزي ثمّ ضحك بدوره. لم يكن يضحك على نحو مرح بل مبحوح هائج قليلاً.

دخلت بياتريس على الماليغراس بطريقة توحي بالنّصر.

حتّى فاني أذهلها الجمال. لا شيء يليق بالنّساء أفضل من نوبة طموح. الحبّ يثخنهنّ. سارع ألان ماليغراس لاستقبالها وقبّل يدها.

- برنارد هنا؟ سألت بياتريس.

راحت تبحث عن برنارد بين قرابة العشرة ضيوف كانوا قد سبقوها للمجيء، لا شيء كان سيمنعها من أن تدوس على ألان للبحث عنه. ابتعد ألان ببقيّة سحنة فرح وجدت طريقها إلى وجهه، حميميّة أكسبها لقاؤهما المباغت ملامحَ خاصّة. كان برنارد جالساً على كنبة بجوار زوجته وشخصٍ غيرِ معروف. رغم لهفتهما تعرّفت بياتريس على نيكول وأخذتها بها الشّفقة؛ كانت تجلس مُستقيمة، يداها فوق ركبتيها، وابتسامة خجولة على شفتيها. «ينبغي أن أعلّمها كيف تعيش» فكّرت بياتريس بما أتاحه له شعور بالطّيبة داخلها.

- برنارد. قالت، أنت شخصيّة مُقزّزة، لمَ لم تهاتفني عند الخامسة؟ اتّصلتُ بك عشر مرّات في المكتب. أهلا نيكول.

- ذهبتُ لمقابلة س.... قال برنارد منتصراً. سنشرب كأساً ثلاثتنا غداً عند السّاعة السّادسة.

هوت بياتريس على الكنبة ساحقة قليلاً الشابّ غير المعروف، اعتذرت، اقتربت فاني.

- بياتريس لا تعرفين ابن أخ ألان، إدوارد ماليغراس؟

رمقته وابتسمت له. كان في وجهه شيء ما لا يُقاوَم، مسحة شباب وطيبة أخّاذة، نظر إليها باندهاش دفعها إلى الضّحك. انضمّ إليها برنارد.

– ماذا هناك؟ قَصّتي رديئة إلى هذا الحدّ أم إنّي مجنونة؟ تحبّ بياتريس أن يُظَنّ بأنّها مجنونة. لكن في هذه المرّة، تدرك جيّداً أنّ الشابّ يجدها فاتنة.

– لا تبدين مجنونة. قال، أنا آسف لو ذهب في اعتقادك...

كان من الواضح أنّه منزعج، ما جعلها تستدير مُتضايقة. نظر إليها برنارد مُبتسماً. ونهض الشابّ وبخطوات مرتبكة التحق بطاولة قاعة الأكل.

– مجنون بك. قال برنارد.

– حسناً، انظر أنت هو المجنون، لاحظ أنّي أتيتُ للتوّ.

إلّا أنّها كانت مُقتنعة. تُصدّق بسهولة أنّ أحدهم جُنّ بها، دون شعور كبير بالفخر.

– هذا لا يحدث سوى في الرّوايات، غير أنّه شابٌّ روايات. قال برنارد، أتى من البادية ليعيش في باريس، لم يحبّ أحداً أبداً، لا ينكر ذلك بكثير من اليأس، لكنّه لا شكّ في أنّه يفكّر في استبدال يأسه بآخر. جميلتنا بياتريس ستتكفّل بجعله يتعذّب.

– دعك وحدّثني عن س... قالت بياتريس. هل هو مِثليّ؟

– بياتريس حلّقتِ عالياً في الخيال. قال برنارد.

– لا ليس هذا. قالت بياتريس، لكنّي لا أتّفق أبداً مع المثليّين. هذا يضجرني، أحبّذ النّاس السّليمين.

– لم أعرف مثليّين. قالت نيكول.

– غير مهم. قال برنارد، معنا ثلاثة منهم هنا...

لكنّه توقّف فجأة. جوزي وصلت للتوّ، كانت تضحك مع ألان في المدخل وهي تجوس بنظراتها في القاعة. كانت تبدو متعبة وعلى خدّها بقعة سوداء. لم تلحظه. تألّم برنارد بصمت.

– جوزي، أين اختفيت؟ صاحت بياتريس. استدارت جوزي. انتبهت إليها واقتربت مُبتسمة بمشقّة. كانت منهكة وسعيدة في آنٍ.

في سنّ الخامسة والعشرين ما زالت تحافظ على مراهقتها المُغامرة التي تجعلها تشبه برنارد.

نهض:

- لا أظنّ أنّكِ تعرفين زوجتي. قال، جوزي سان جيل.

ابتسمت جوزي ولم ترمش. قبّلت بياتريس وجلست. برنارد كان واقفاً قبالتها على ساق واحدة ولا يُفكّر سوى في: «من أين قدِمت؟ ماذا فعلت خلال عشرة أيّام؟ فقط لو كانت تفتقر إلى المال».

- أمضيتُ عشرة أيّام في الرّيف. قالت، المنظر أحمر بالكامل.

- تبدين متعبة. قال برنارد.

- أتمنّى الذهاب إلى الرّيف. قالت نيكول. كانت ترمق جوزي بودّ. إنّها أوّل شخص لم تشعر معه بالرّهاب.

جوزي لم تكن مرعبة إلّا عندما يخالطها المرء جيّداً وسيبدو لطفها قاتلاً.

- تحبّين الرّيف؟ قالت جوزي.

- إذًا، فكّر برنارد بغضب، ستهتمّ بنيكول، ستحدّثها بلطف، تحبّين الرّيف؟ مسكينة نيكول، تعتقد أنّها أصبحت صديقتها.

اتّجه إلى البار وقد قرّر أن يثمل. تابعته نيكول بعينيها وكَنّت جوزي إزاء تلك النّظرات مزيجاً من الانزعاج والشّفقة. كان لديها نوع من الفضول تجاه برنارد لكن سرعان ما اتّضح أنّه يشبهها. غير مُستقرّ بالمرّة حتّى تتعلّق به. وعلى الأرجح كان الأمر مماثلاً بالنّسبة إليه. حاولت الردّ على نيكول لكنّها أحسّت بالقرف.

كانت متعبة وتراءى لها النّاس خالين من الحياة، إقامتها دامت طويلاً، وبدا لها أنّها عادت من سفر طويل في بلاد اللّامعقول.

- ...وبما أنّي لا أعرف شخصاً واحداً يملك سيّارة. قالت نيكول، لن يكون في استطاعتي التجوّل داخل غابة.

توقّفت وقالت فجأة:

- ولا حتّى شخصاً واحداً يملك سيّارة.

مرارة الجملة هزّت جوزي.

- هل أنتِ وحدكِ؟ قالت.

غير أنّ نيكول قالت بذعر:

- لا أبداً، أنا أقول هذا في الهواء ثمّ إنّي أحبّ الماليغراس كثيراً.

تردّدت جوزي لحظة. لو عاد بها الزّمن ثلاث سنوات إلى الوراء لسألتها ولحاولت مُساعدتها. إلّا أنّها كانت منهكة من نفسها ومن حياتها. ماذا يعني هذا الشابّ المتهوّر وهذا الصّالون؟

تعرف سلفاً أنّها لم تعد قضيّة عثور على إجابة، بل انتظاراً حتّى يتوقّف السّؤال عن أن يكون مطروحاً.

- لو أردتِ في المرّة القادمة عندما أخرج في نزهة سأمرّ بك لأصطحبك معي. قالت ببساطة.

بلغ برنارد حالته القصوى: كان ثملاً قليلاً، ولقد وجد متعة في الحديث إلى الشابّ الريفيّ ماليغراس الذي يُفتَرض أن يكون مصدر إزعاج بالنّسبة إليه.

محافظة على الوجهة:

- قلتَ إنّ اسمها بياتريس؟ تؤدّي المسرح، لكن أين؟ سأذهب غداً، أترى، من المهمّ جدّاً بالنّسبة إليَّ أن أعرفها. كتبتُ مسرحيّة وأظنّ أنّها ستكون مناسبة لدور البطلة.

كان إدوارد ماليغراس يتحدث بحرقة.

برنارد انفجر ضاحكاً:

- لم تكتب مسرحيّة. أنت تتهيّأ لحبّ بياتريس. ستعاني يا صديقي، بياتريس لطيفة لكنّها الطّموح نفسه.

- برنارد لا تقل أشياء لا تليق على بياتريس التي تعشقك هذا المساء، تدخّلت فاني، ثمّ إنّي أرغب في أن تستمع إلى موسيقى هذا الشابّ.

أشارت إلى شابّ يتّخذ مكانه خلف البيانو. جلس برنارد عند أقدام جوزي، يشعر بانعتاق في حركاته، وبأرحيّة كبيرة. راح يُحدّث جوزي: «عزيزتي جوزي، هذا مملّ، أحبّك» هذا صحيح بلا شكّ. تذكّر فجأة الطّريقة التي طوّقت بها عنقه بذراعها للمرّة الأولى التي قبّلها فيها، كان ذلك في مكتبة بيته. تلك الطّريقة التي انتصبت بها في مواجهته وتدفّق الدّم إلى قلبه. لا يُعقَل أن لا تكون مغرمة به.

لعب عازف البيانو موسيقى رائعة جدّاً. بدت له وديعة مع جملة خفيفة تتكرّر باستمرار، موسيقى الرّأس المائلة، أدرك برنارد بغتة ما الذي ينبغي أن يُكتب وما الذي يجب شرحه، تلك الجملة كانت جوزي كلّ الرّجال، شبابهم ورغباتهم الحزينة.

ها هي إذًا ، فكّر بإثارة، إنّها هذه الجملة الصّغيرة! آه! بروست، ثمّة بروست؛ ماذا عسى أن أفعل ببروست في نهاية الأمر.

أخذ جوزي من يدها فسحبتها. كانت نيكول تراقبه، ابتسم لها لأنّه يُكنّ لها المحبّة.

إدوارد ماليغراس شابّ بقلب نقيّ. لا يخلط بين الغرور وبين الحبّ، وليس لديه التّوق إلى خوض قصص حافلة بالشّوق. ولأنّه كان محروماً في كايان[2] فقد جاء إلى باريس كفاتح أعزل، لا أمل له في النّجاح أو امتلاك سيّارة رياضيّة أو حتّى أن يكون محلّ إعجاب من قبل أحد. عثر له والده على وظيفة متواضعة لدى شركة التأمين. يجدر القول إنّ هذه الوظيفة ترضيه منذ أسبوع. يهوى محطّات الأوتوبيس ومقاهي الرّصيف والابتسامات التي تلقيها في وجهه النّساء، فقد كان لديه ما يجعله لا يُقامر. لم تكن صراحة إنّما استعداداً دائماً وكاملاً.

بياتريس ألهمته شوقاً فوريّاً وخصوصاً رغبة عنيفة لم يكن في مقدور

2- كايان: مقاطعة فرنسيّة خارج الحدود وهي تابعة لإقليم لاغوبيان.

زوجة محضر قضائي في كايان – عشيقته في تلك الفترة – أن تهبه إيّاه. إلى جانب دخولها إلى صالون حافل بكلّ البذخ الذي يمنحه التحرّر والأناقة والمسرح والطّموح أخيراً. إحساس يفتنه لكنّه لا يجد له تفسيراً.

إنّما سيأتي يوم تقول له فيه بياتريس وهي تميل برأسها: «مستقبلي المهني لا يهمّني أكثر منك» وستدفن وجهها في شعره الفاحم، تُقبّل ذاك القناع المأساوي، وتجعله يصمت. قال لنفسه ذلك وهو يشرب عصير اللّيمون بينما يعزف الرّجل البيانو. برنارد يحظى بإعجابه: إنّه يجد فيه تلك النّاحية التهكّميّة اللّاذعة المُميّزة لصحافيّي باريس الذين قرأ عنهم في أعمال بلزاك.

سارع إذًا لمرافقة بياتريس. بيد أن سيّارة صغيرة كانت تحت تصرّفها، أعارها إيّاها أحد أصدقائها، واقترحت عليه أن تقلّه إلى بيته.

– يمكنني مرافقتك والعودة على القدمين. قال.

لكنّها ادّعت بأن لا ضرورة لذلك. تركته إذًا في ركن قذر بين طريق أوصمان Haussman وشارع ترانشي غير بعيد عن مسكنه. كان منظره مذهولاً، ما دفع بها إلى وضع يدها على خدّه قائلة: «إلى اللّقاء أيّها الجدي الصّغير». كانت تهوى إقامة علاقة أوجه شبه بين النّاس وبين الحيوانات. إضافة إلى ذلك فإنّ هذا الجدي الصّغير على وشك دخول زريبة معجبيها. في تلك الآونة صادف أنّه عاجز. على أيّ حال هو شابّ وسيم ما يكفي.

لكنّ الجدي الصّغير ظلّ مفتوناً بأناملها التي داعبت البوّابة. لاهثاً كدابّة يائسة، وفي لحظة عاطفة قصوى أعطته سريعاً رقم هاتفها خلاف ما جرت به العادة في مثل هذه التّفاصيل. الإليزيه بات إذًا رمز الحياة والتطوّر بالنّسبة إلى إدوارد. تتبعه فيالق الدانتون Danton [3]– ماليغراس والـواغرام Wagram [4]– مكتب، جاب باريس مشياً على الأقدام كما

3 – دانتون: أحد مستشاري الملك في القرن 18.

4 – واغرام: تُعَدّ أكبر المعارك التي خاضتها فرنسا، جمعت المعركة بين فرنسا بقيادة نابوليون بونابارت وبين النّمسا سنة 1809 وانتهت بتكبّد فرنسا هزيمة وخسائر جسيمة لم تخرج النّمسا بأقلّ منها.

يفعل الشّباب حين يُغرَمون، مترجّلاً، مُجَنّحاً، فيما راحت بياتريس تلقي خطبة فيدر Phèdre [5] أمام مرآتها. يتطلّب النّجاح قبل كلّ شيء النّظام والعمل، لا أحد يجهل ذلك.

مكتبة
t.me/t_pdf

5 – فيدر: ملحمة شعريّة مسرحيّة من 5 فصول ألّفها جون راسين سنة 1677.

الفصل 3

اللّقاء الأوّل الذي جمع جاك بمن تسمّيهم جوزي بـ «الآخرين» منذ ما يناهز الشّهر، كان لقاءً عصيباً. بمشقّة أخفته، فقد كانت تسرّ رغبة عارمة في القيام بمحاولة لقطع شيء ما بينها وبينهم، شيء مبنيّ على الذّوق الرّاقي، على التّقدير، شيء من قبيل أنّ هؤلاء الأشخاص يحبّون بعضهم وأنّ جاك سيكون غير مفهوم بالنّسبة إليهم، إلّا إذا اعتمدت أسلوب شرح يأخذ الجنس بعين الاعتبار، الأمر الذي لن يكون حكيماً في الوضع الحالي.

فاني وحدها كانت ستفهم. لهذا بدأت بها حملة تقديمه.

خرجت لاحتساء الشّاي في شارع تورنون Tournon. على جاك أن يلتحق بها. أخبرها أنّ الأمسية في بيت الماليغراس أوّل لقاء لهما كانت أمسية طارئة: لقد أقلّه إلى هناك أحد ضحايا بياتريس. «حتّى إنّي أوشكتُ على أن أشتاقك لأنّي أحسستُ بالضّجر ورحلت» أضاف.

لم تسأله لِم لَم يقل: «كنتُ على وشك أن أجعلك تشتاقين إليّ» أو «كنّا على وشك أن نشتاق إلى بعضنا بعضاً». يتحدّث دائماً عن حضوره في حياة النّاس كما لو أنّه حادث حصل لهم - دون تدقيق إن كان مؤسفاً -. وانتهى بجوزي الأمر إلى أن تفكّر: لا. أن يكون فعلاً حادثاً وأنّها تعبت منه. فقط لم يكن هناك بعدُ ما هو أقوى من فضولها تجاهه.

كانت فاني وحدها تقرأ رواية جديدة. تقرأ الرّوايات الجديدة دائماً لكنّها لا تذكر سوى فلوبير وراسين. مُدركة تماماً ما يلفت الانتباه. هي

وجوزي تحبّان بعضهما بعضاً لكنّهما تناوران غير مُنكِرتين ثقة خرساء بينهما، لا تبديانها لأيّ شخص آخر.

تحدّثنا في البداية عن شغف إدوارد المجنون ببياتريس وعن الدّور الذي حصلت عليه في مسرحيّة س...

- ستكون أفضل في مسرحيّة س... من تلك التي ستُؤدّيها مع المسكين إدوارد. قالت فاني.

كانت رشيقة برقصة رائعة وحركات ساحرة. الأريكة البنفسجيّة والأثاث الإنجليزي يلائمانها.

- تبدين منسجمة مع شقّتك، قالت فاني، هذا نادر.

- من أنجز لك الدّيكور؟ استفسرت فاني. آه! نعم. لوفاچ. جميل أليس كذلك؟

- لا أدري. قالت جوزي، يُقال. لا أعتقد أنّه ينسجم معي، أصلاً لم أشعر يوماً أنّ الدّيكور يليق بي. ربّما النّاس أحياناً.

فكّرت في جاك واحمرّ وجهها. لاحظت فاني ذلك:

- أنتِ تحمَرّين. أظنّ أنّك تملكين الكثير من المال. ماذا عن مدرسة اللّوفر؟ ووالديك؟

- تعرفين كيف تسير الأمور مع مدرسة اللّوفر فيما يخصّني. أمّا والِدَاي فلا يزالان في شمال إفريقيا. يُرسلان لي الصّكوك دائماً. كنتُ دائماً اللاّجدوى في حدّ ذاتها. اجتماعيّاً، سيّان بالنّسبة إليَّ لكن...

ترددّت:

- أرغب بشوق في القيام بأمر ما يعجبني، كلّا أمر ما يفتنني. الكثير من الولع في جملة واحدة.

توقّفت وقالت فجأة:

- وأنت؟

- أنا؟

فاني ماليغراس فتحت عينيها كما في رسوم الأطفال.

- نعم . إنّه دائماً أنتِ من يُصغي. لنتبادل الأدوار. هل قلّلتُ من أدبي؟

- أنا؟ قالت فاني ضاحكة، لديّ ألان ماليغراس.

رفعت جوزي حاجبيها؛ ساد صمت تبادلتا فيه النّظرات كما لو أنّ لهما العمر نفسه:

- إلى هذه الدّرجة يُلاحَظُ ذلك؟ سألت فاني. كان لديها نبرة تلامس جوزي وتزعجها. نهضت وراحت تذرع الغرفة:

- لا أعلم ماذا لدى بياتريس. جمالها؟ أو تلك القوّة العمياء؟ إنّها الوحيدة بيننا التي لها طموح.

- وبرنارد؟

- برنارد يُحبّ الأدب أكثر من أيّ شيء آخر. الأمر مُختلف، ثمّ إنّه ذكيّ. لا شيء يضاهي قدراً من الغباء.

فكّرَت في جاك مُجدّداً. وخلصت إلى أن تُحدّث فاني عنه وكانت قد قرّرت رؤية وقع المفاجأة عليها لدى وُصوله. إلّا أنّ برنارد دخل. ولمّا رأى جوزي انتابه إحساس بالسّعادة سرعان ما انتبهت إليه فاني.

- فاني، زوجك لديه عشاء عمل، وقد أرسلني في «الإسطافيت»[6] بحثاً عن ربطة عنق أنيقة لأنّ الوقت لا يسعه للعودة. خصّص قائلاً:

- الزّرقاء ذات الخطوط السّوداء.

ضحك ثلاثتهم وخرجت فاني لجلب ربطة العنق. أخذ برنارد جوزي من يدها:

- جوزي، سعيد برؤيتك. وحزين لأنّ لقاءنا خاطف دائماً. لم تعودي ترغبين في العشاء معي؟

رمقته؛ كانت سحنته غريبة، مزيجاً من السّعادة والمرارة.

6- الإسطافيت: نوع من السيّارات المدنيّة، يتمّ استخدامها للصالح الخاصّ وللنقل الجماعي وبصفة خاصّة كسيّارات إسعاف.

كان رأسه مائلاً وشعره أسود وعيناه تتألّقان.

- يبدو لي أنّه من فصيلتي نفسها، فكّرت، كان يجدر بي أن أحبّه.

- نتعشّى متى شئتَ. قالت.

منذ خمسة عشر يوماً وهي تتناول عشاءها مع جاك، في بيتها، لأنّه لا يرغب في الذّهاب إلى المطاعم. لعجزه عن الدّفع ولأنّ كبرياءه تتماشى أكثر مع العشاء في بيت جوزي. بعد العشاء سهر على مذاكرة دروسه، بجدّيّة، وجوزي تقرأ. هذه الحياة الثّنائيّة مع رجل نصف أخرس بالنّسبة إلى جوزي المُعتادة على الخروج والتأخّر، على النّقاشات المُسلّية كانت استثنائيّة. انتبهت إلى ذلك فجأة. رنّ الجرس فسحبت يدها من يد برنارد:

- هناك من يطلب الآنسة. قالت الخادمة.

- أدخليه. قالت فاني.

عادت وتسمّرت أمام الباب الآخر. برنارد كان قد استدار.

- يعتقدون أنّهم في مسرحيّة. فكّرت جوزي مع بداية نوبة ضحك.

ظهر جاك كما يظهر الثّور في ميدان المُصارعة. جبينه إلى أسفل، يتحسّس السجّاد بقدمه. يحمل اسماً بلجيكيّاً بلا جدوى حاولت جوزي تذكّره إلّا أنّه سبقها:

- جئتُ لاصطحابك. قال.

كانت يداه في جيوب معطفه الصّوفيّ الطّويل، بملامح حادّة.

- إنّه غير قابل للخروج معه. فكّرت جوزي وهي تخنق نوبة الضّحك، لكن انتابها الفرح والازدراء وهي تراقب فاني. وجه برنارد لم يكن يعكس شيئاً. كأنّه كان أعمى.

- ألقِ التحيّة على الأقلّ. قالت جوزي بلطف تقريباً. عندها ابتسم جاك بنوع من السّخاء، صافح فاني وبرنارد.

غروب الشّمس لوّن شارع تورنون بالأحمر. «ثمّة عبارة لهذا الصّنف من الرّجال، فكّرت جوزي: الحيويّة، الفحولة...؟».

– ثمّة عبارة تشمل هذا النّوع من الشّباب، فكّرت فاني من جهتها: إنّه صعلوك. أين رأيتُه من قبل؟...

ثمّ سرعان ما تصرّفت بودّ.

– اجلس، أرجوك. لِمَ نحن واقفون جميعاً؟ هل تشرب شيئاً؟ أم أنت متعجّل؟

– لديّ كلّ الوقت. قال جاك وأنت؟ متوجّهاً بالكلام إلى جوزي.

أومأت برأسها إيجاباً.

– يجب أن أغادر. قال برنارد.

– أرافقك. قالت فاني. نسيتَ ربطة العنق برنارد.

كان شاحباً جدّاً وهو يتجاوز المدخل.

فاني التي كانت على استعداد لتتبادل معه إشارات الذّهول لم تتحرّك. خرج دون أن يتفوّه بكلمة. عادت فاني إلى الصّالة.

كان جاك جالساً يرمق جوزي مُبتسماً:

– أراهن بأنّه السيّد الذي هاتف. قال.

مشى في الطّريق كالممسوس، مُكلّماً نفسه بصوت مرتفع تقريباً. أخيراً وجد مقعداً. جلس وضمّ ذراعيه حول جسمه كما لو أنّه يشعر بالبرد. «جوزي، فكّر، جوزي وهذا الحيوان!». انحنى إلى الأمام واستقام تحت تأثير ألم بدنيّ رهيب، امرأة عجوز جالسة بجواره اندهشت وبدأت تخافه. ألقى عليها نظرة وواصل مسيره، عليه أن يحمل ربطة العنق لألان.

– هذا يكفي. قرّر بحسم، لم أعد أحتمل. روايات رديئة وشغف رخيص برافعة! إنّها حتّى ليست رافعة صغيرة. لا أحبّها، أنا أغار منها. لا يمكن أن يدوم هذا، هذا كثير أو قليل جدّاً...

اتّخذ في الوقت نفسه قرار اً بالرّحيل. «سأجد وجهة ثقافيّة ما أسافر

إليها، فكّر. بتهكّم، هذا جلّ ما أتقن القيام به: مقالات ثقافيّة، رحلات ثقافيّة، نقاشات ثقافيّة، الثّقافة هي ما يبقى حين لا يكون هناك ما نتقن فعله». ونيكول؟

سيعيد نيكول إلى أهلها. مدّة شهر، سيُحاول خلاله استعادة زمام أموره. إنّما أن يغيب عن باريس حيث جوزي...؟ أين ستذهب مع ذلك الطّفل. ماذا ستفعل؟ اصطدم بألان في السُّلّم.

- أخيراً. قال ألان، ربطة عنقي!

يُفتَرض أن يتعشّى مع بياتريس قبل بدء المسرحيّة. وبما أنّها لن تظهر سوى في المشهد الثّاني فإنّ لديها الوقت حتّى العاشرة. لكنّ كلّ دقيقة من هذا اللّقاء المنفرد يبدو له ثميناً. إدوارد ماليغراس ابن أخيه كان بمثابة الذّريعة التي تعلّل بها ألان لرؤية بياتريس خارج يوم الاثنين.

مُرتدياً ربطة عنق جديدة ومنشغلاً كعادته بالوجه المُتجهّم الذي لدى برنارد الرّجل الذي يعتبر نفسه حامياً له، انطلق يبحث عن بياتريس في النّزل الذي تقيم فيه، في نهج صغير قريب من شارع «مونتاني». يتخيّل، لا يُدرك ماذا يتخيّل؛ هو وبياتريس في مطعم فاخر معزول؛ ضجيج السيّارات في الخارج وما يسمّيه بالـ «القناع الرّائع» لبياتريس، مُحجّبة بالضّوء الوردي لأبجورة مائلة نحوه. هو. ألان ماليغراس، الرّجل الفاقد للاهتمام، ذو الذّوق الرّفيع، والقامة الطّويلة التي يعرف جيّداً أنّها تروق لبياتريس. يتحدّثان عن إدوارد بتسامح في البداية، ثمّ بضجر، أخيراً بنوع من الوهم الذي لا تتأخّر الحياة في إصباغه على النّساء الجميلات قليلاً، عن التّجربة يتحدّثان. يمسك يدها من تحت الطّاولة. لا تجرؤ على تخيّل دور أكثر جسارة. غير أنّه يجهل كلّ شيء عن تصوّر بياتريس. يهابها، فهو يحدس بأنّها ستكون في مزاج رائق متألّمة بسبب تلك الحيويّة المفزعة التي يمنحها الطّموح.

بياتريس لعبت دوراً في ذلك المساء، دوراً كان يُفتَرض أن يتماشى مع دور ماليغراس.

كلمات جيّدة من قبل مخرج مسرحيّة س... الانتباه غير المُتوقّع للصحافيّ مُؤثّر، وهبها النّجاح معنويّاً في واحد من تلك السُّبل التي تسلكها المُخيّلة حين يسندنا العالم. كانت إذًا في ذاك المساء، الممثّلة الشابّة التي نجحت. مُوقّعة أحلامها مع الواقع بفضل واحد من معجزات التّوفيق بين الوقت وبين الإحساس والتي لا أحد يقدر عليها إلّا أصحاب الأرواح الهابطة، كانت المُمثّلة الظّافرة، غير أنّها كانت دائماً تُحبّذ خوض النّقاشات مع رجل أدب رقيق الذّوق على السّعادة المغشوشة التي تمنحها العلب اللّيليّة ، النّجاح لا يقصي الأصالة. لذلك واعدت ألان ماليغراس، رغم استعداده المحسوب جيّداً للقيام بنزوات مجنونة، في حانة صغيرة يُقال إنّها للمُثقّفين. لن يكون هناك إذًا أبجورة ورديّة بينها وبينه، بل اليدان المُغيظتان للنّادلة والتّشويش الصّاخب للطّاولات الأخرى وقيثارة فظيعة.

- عزيزي ألان. قالت بياتريس بصوت خافت، ماذا يحدث؟ لا أخفيك مكالمتك الأخيرة أثارت فضولي للغاية.

(آخر مسرحيّة لــ س... كانت مسرحيّة بوليسيّة تاريخيّة)

الوقت يمرّ، يمرّ، رفس خبزه. نصف السّاعة الأولى انقضت في سوء فهم يتعلّق بالتّاكسي، معلومات متضاربة من قبل بياتريس للسّائق قصد العثور على المكان المُقزّز، التوسّل للحصول على مكان شاغر. ودّ لو أنّه يتنفّس، إلى جانب ذلك كانت هناك مرآة قبالته حيث اضطرّ إلى أن يتفرّس في ملامح وجهه الرّخو الطّويل، المُخدّد بلا سبب في بعض المواضع وطفوليّاً في مواضع أخرى. ثمّة أناس تطبعهم الحياة مصادفة، كافلة لهم شيخوخة غير مؤكّدة. تنهّد.

- إدوارد؟ ابتسمت بياتريس.

- بلى، إدوارد. قال، واعتصرت الابتسامة قلبه.

سيبدو لك هذا الكلام غبيّاً (إلهي كم سيبدو غبيّاً!) لكنّ إدوارد طفل، ويحبّك، منذ حلّ بيننا، اقترض أكثر من مئة ألف فرنك، منها خمسون ألفاً من جوزي، ليلبس بطريقة مسرفة كي يعجبكِ.

- يغرقني بالزّهور.

قالت بياتريس وهي تبتسم من جديد. كانت ابتسامة رائعة تفيض تسامحاً وتعباً، إلّا أنّ ألان ماليغراس الذي قليلاً ما يرتاد السّينما أو المسارح الرّديئة لم يفهم الابتسامة. فقد بدت له ابتسامة حبّ وكان فعلاً على استعداد للمغادرة.

- كم هذا مؤلم، أنهى بفتور.

- مملّ أن يحبّني أحدهم؟ قالت بياتريس وهي تميل برأسها وانتابها إحساس بأنّها تخرج عن الموضوع. لكنّ قلب ماليغراس قفز.

- أفهمه جيّداً. قال بحماس، وندّت ضحكة عن بياتريس.

- آخذ جبناً. قالت، حدّثني عن إدوارد، ألان. لا أخفي أنّه يسلّيني، لكنّي لا أرضى أن يقترض المال لأجلي.

خطر لها في لحظة أن تعترف: «لكن ليُفلسْ! لِمَ قد يصلح الرّجال في مقتبل العمر إذاً؟». لم تنكر الفكرة لكنّها زعمت أنّ قلبها الطيّب يمنعها من قول ذلك أمام عمٍّ يائس. بدا أنّ ألان مذعور. مالت عليه كما تخيّل في حُلمِه وأصبحت القيثارة هائجة والشّموع المُدّعية ترقص في عينَيْ بياتريس.

- ماذا علَيّ أن أفعل ألان؟ وبنزاهة ما الذي يمكنني فعله؟

التقط أنفاسه واستغرق في تفاسير مُشوّشة. ربّما جعلت إدوارد يفهم أنّه لا أمل.

- لكن هناك أمل. قالت بياتريس في نفسها بمرح. لقد أُصيبت بنوبة عاطفة وهي تُفكر في إدوارد، شَعره الكستنائيّ النّاعم. حركاتُه المرتبكة، صوتُه المرح في الهاتف. وهو فوق كلّ ذلك يقترض لأجلها! نسيَت

مسرحيّة س...، دورها المسائيّ. وانتابتها رغبة في رؤية إدوارد، في ضمّه إليها، في أن تشعر به يرتعش بين ذراعيها من السّعادة. التقت به مرّة واحدة في حانة، ظلّ جامداً بسحنة انبهار إلى درجة أنّها شعرت بالفخر. تجاه إدوارد كلّ حركة تصبح هديّة مُدهشة وتشعر بشكل ملتبس أنّ العلاقات مع البشر لا ينبغي إلّا أن تكون على هذا النّحو.

- سأفعل ما في وسعي. قالت. أقسم لك بفاني. وأنت تعرف كم أحبّها!

«يا لها من حمقاء!» عَبَرت هذه الفكرة ذهن ماليغراس. لكنّه ظلّ مُتشبّثاً بخطّته. يغيّر الموضوع حاليّاً، ثمّ بعد ذلك يأخذ يد بياتريس بين يديه.

- ماذا لو غادرنا. قال. ربّما احتسينا كأس ويسكي في مكان ما، قبل المشهد الثّاني. لستُ جائعاً.

- يمكننا الذّهاب إلى فاتس، فكّرت بياتريس، لكنّه في حلقة ضيّقة جدّاً؛ وربطة عنقه تُعطي انطباعاً بأنّه كاتب عدل. عزيزي ألان، فرنسا العجوز!

ومدّت يدها تحت الطّاولة لتمسك بيد ألان.

- نذهب حيث تشاء. قالت. أنا سعيدة لأنّك موجود.

مسح ألان شفتيه وطلب الحساب بصوت منطفئ.

بعدما لامست يد ألان. غاصت يد بياتريس في قفّاز أحمر، الأمر ذاته الذي عليه حذاؤها. عند العاشرة بعد احتساء الويسكي في مقهى قبالة المسرح والحديث عن الحرب وما بعد الحرب. «فتيان اليوم لا يعرفون ماذا يعني قبو، ولا ماذا يعني جاز» قالت بياتريس، وافترقا.

توقّف ألان عن المقاومة منذ ما يقرب عن السّاعة. واكتفى بالإنصات إلى بياتريس بفرح غامض وهي تُعدّد أماكنهما المُشتركة أو الإعجاب بوجهها كلّما اجتمعت لديه بعض الشّجاعة.

كانت في آونة أو آونتين قد تغنجت فيهما لأنّها كانت في كامل أناقتها ذاك المساء إلّا أنّه لم ينتبه إلى ذلك قطّ. حين نحلم بشيء ما على أنّه فرصة عظيمة مُتوهّجة، لا ننتبه إلى الوسائل الصّغيرة رغم أنّها الأقدر على تحقيقه. ألان ماليغراس قرأ «ستندال» برويّة أكثر من «بلزاك». كلّفه ذلك غالياً. كلّفه غالياً أنّه قرأ وأنّه عرف، عرف أنّه من الممكن كره ما نحبّ. يُجنّبه ذلك أزمة بلا شكّ، لكن ربّما تحوّل إلى أمر مصيريّ. صحيح أنّ في سنّه لا يقيم الشّغف وزناً للتّقدير. لكنّه لا يملك البداهة المندفعة التي لدى جوزي: «هذا الشابّ لي».

عاد إلى بيته كاللّص. ألأنّه أمضى ثلاث ساعات مع بياتريس في نزل يعود منتصراً، بذلك الضّمير المرتاح الذي تمنحه السّعادة. لمَ يخون فاني، عاد كمذنب. كانت مستلقية في فراشها وقارئة زرقاء على كتفها. نزع ملابسه في الحمّام وهو يتحدّث بشكل غائم عن عشاء العمل. أحسّ بأنّه مطحون.

– مساء الخير فاني.

مال على زوجته. جذبته نحوها. كان وجهه على كتفها. «مؤكّد أنّها حدست، فكّر بكلل، لكن ليس هذا الكتف المترهّل ما أرغب فيه، أريد كتف بياتريس الصّلب المُستدير؛ يلزمني وجه بياتريس المقلوب المجنون لا هذه العينان الذكيّتان».

– أنا تعيس جدّاً. قال بصوت عالٍ؛ ثمّ انسحب ودخل فراشه.

الفصل 4

رحل وبكت نيكول. كان كلّ ذلك مُتَوَقّعاً منذ زمن. وبدا لبرنارد وهو يحزم حقائبه أنّ حياته برمّتها كانت دائماً متوقّعة. كان من الطّبيعي أن يكون له جسم رائع وشباب مُضطرب، وعلاقة ببياتريس وارتباط وثيق بالأدب. كما هو طبيعيّ أيضاً أن يتزوّج امرأة شابّة لا تعني الكثير، وأن يجعلها تتعذّب كحيوان دون أن يفهم من عذابها شيئاً. فقد كان دائماً ذلك الفظّ الذي يقترف الوحشيّة، وحشيّة الطّبقة الوسطى وله حكايات رجال الطّبقة الوسطى. لكن ينبغي أن يلعب دور الذّكر المُريح للآخر. استدار نحو نيكول، أخذها بين ذراعيه:

- لا تبكي عزيزتي، تفهمين أنّ علَيّ الذّهاب. هذا هامّ بالنّسبة إليَّ. شهر ليس بالأمر العظيم. والداك...

- لا أريد العودة إلى أهلي، حتّى مدّة شهر.

كانت فكرة نيكول الرّاسخة. تريد البقاء في بيتها. ويعلم أنّها خلال كلّ اللّيالي ستنام مستقبلة الباب بوجهها، في انتظاره.

شفقة هائلة راودته، جعلته يعود على نفسه.

- ستضجرين هنا وحدك.

- سأذهب لرؤية الماليغراس. وجوزي وعدت بأخذي في جولة بالسيّارة.

- جوزي. أفلتها. تناول قمصانه كالمسعور وحشرها في الحقيبة. جوزي. آه! إنّها نيكول والمشاعر الإنسانيّة! جوزي. متى يتخلّص من

هذا الاسم، من هذه الغيرة؟ الأمر العنيف الوحيد في حياته. إنّها الغيرة بلا شكّ. يمقت نفسه.

- هل ستكتب لي؟ سألت نيكول.

- كلّ يوم.

انتابته رغبة بالالتفات. بأن يقول لها: «يمكنني لو أردتِ أن أكتب لك ثلاثين رسالة مُسبقاً: «عزيزتي كلّ شيء يسير على ما يُرام. إيطاليا جميلة جدّاً، سنذهب إليها سويّاً. عمل كثير لكنّي أفكّر فيك. أشتاق إليك. سأكتب بإسهاب غداً. أقبّلك»» هذا ما كان سيكتب لها مدّة شهر. لِمَ هناك أناس يمنحونك صوتاً وآخرون لا يفعلون؟ آه! جوزي! كتب لجوزي:

«جوزي لو تعلمين، لا أدري كيف أجعلك تفهمين، وأنا بعيد عنك جرّاء هذا الوجه الذي هو وجهك، الذي يمزّقني مجرّد التّفكير فيه. جوزي هل أنا مخطئ؟ أما زال هناك متّسع من وقت؟» نعم يعلم أنّه سيكتب لجوزي من إيطاليا مساءً بائساً، حيث تقسو الكلمات وتثقل تحت ريشته، لكنّها ستكون كلمات حيّة. سيجيد الكتابة، أخيراً. لكن نيكول...

كانت شقراء، كانت لا تزال تبكي قليلاً متّكئة على ظهره:

- سامحيني. قال.

- أنا من يطلب منك الصّفح. لم أكن أعرف ... أوه! تدري، برنارد، حاولت، حاولت في أحيان كثيرة...

- ماذا؟ قال. انتابه الخوف.

- حاولتُ أن أكون في مستواك، أن أساعدك، أن أرافقك، لكنّي لستُ ذكيّة ما يكفي، ولا ظريفة ولا أيّ شيء... أعرف ذلك جيّداً... أوه! برنارد!

اختنقت. ضمّها برنارد إليه وطلب منها الصّفح بعناد ونبرة ميّتة.

ثمّ ها هو في الطّريق. كان يتصرّف بحركات رجل وحيد خلف مقود

سيّارة أعارها إيّاه ناشره. طريقته في إشعال سيجارة بيد واحدة وهو يقود، لعبة أضواء الطّريق وأضواء التّقاطع، إشارات الحذر والودّ التي يرسلها سوّاق اللّيل إلى بعضهم، والأشجار المُتعاقبة والنّباتات أمامه. كان وحيداً. أراد أن يسير اللّيلَ بأسره وبدأ بعدُ يذوق طعم التّعب. هبط عليه نوع من السّعادة المُستقلّة بذاتها. ينقصه كلّ شيء، ماذا يهمّ؟ كان هناك شيء آخر. عرفه دائماً، شيء ما كان هو بذاته وحدته التي تثيره. غداً ستكون جوزي الأهمّ وسيرتكب ألف جُبنٍ، ويتلقّى ألف هزيمة، لكن هذا المساء في قمّة تعبه وحزنه وجد شيئاً سيجده دون توقّف، وجهاً مُطمئناً له، تُهدهده أوراق الشّجر.

لا شيء يشبه مدينة إيطاليّة ما عدا مدينة إيطاليّة أخرى، خاصّة في الخريف. برنارد بعد ستّة أيّام في ميلانو وجنوة، أنجز بعض الأعمال في المتاحف والجرائد الرسميّة قرّر العودة إلى فرنسا.

كان في حاجة إلى بلدة في الرّيف وغرفة في نزل. اختار «پواتيي» Poitiers التي تبدو له البلدَةَ الأكثر موتاً التي يُمكن تخيّلها وهناك بحث عن نزل مُتوسّط اسمُه الإيكو Ecu [7] دي فرانس. اختار كلّ الظّروف بتحرّر كما كان سيفعل لو أخرج مسرحيّة، لم يكن لديه فكرة بعد عن الدّور الذي سيلعبه في هذا الدّيكور الذي - في أوقات مُعيّنة - سيُذكّره بستندال أو سيمنون[8]. لا يعرف أيّ فشل يتربّص به ولا أيّ اكتشاف سيّئ. لكنّه يعرف أنّه سيضجر بعمق عمداً ربّما بيأس وأنّ هذا الملل وهذا اليأس سيبلغان به حدّاً كي يخرجاه من طريقه المسدود. الورطة عاشها بعد عشرة أيّام من قيادة السيّارة.

لم يكن شغفه بجوزي ولا فشله الأدبي ولا نفوره من نيكول. بل شيء ينقص هذا الشّغف وهذا العجز وهذا النّفور. شيء ما كان عليه أن يملأ هذا الفراغ الصّباحي، هذا الانزعاج من نفسه.

---

7 - الإيكو ECU: هي التسمية الأولى للنقد الأوروبي المُوَحّد قبل أن يطلق عليه أورو.

8 - سيمنون: روائي بلجيكي.

وضع أسلحته وسلّم على نفسه للعبط. عليه مدّة ثلاثة أسابيع أن يتحمّل نفسه، وحده. في اليوم الأوّل حدّد جولته. بائع الصّحف، المقهى التّجاري لأجل النّبيذ، المطعم الصّغير المُتخصّص في الواجهة. السّينما التي في الرّكن. غرفة النّزل كانت مفروشة بورق أزرق ورماديّ عليه زهور كبيرة مدعوكة. حوض الغسيل العالي، الجزء السّفلي للسّرير البُنّي. كلّ شيء كان جيّداً. من النّافذة لاحظ المنزل المقابل، كانت مُعلّقة عليه لافتة مجنونة: «*نحو مئة ألف قميص*». نافذة مغلقة ربّما، يُمكنها أن تُفتَح، تُركت له موجة أمل روائيّ. أخيراً فوق طاولته يوجد غطاء أبيض ينزلق بسهولة، حتّى إنّ عليه رفعه إذا أراد أن يكتب. مالكة النّزل كانت مرحّبة لكن باحتراز، المرأة المُكلّفة بالغرف عجوز ثرثارة. لقد أمطرت بشكل كبير في پواتيي تلك السّنة.

دون تهكّم أو سخرية من نفسه استقرّ برنارد. عامل نفسه بمراعاة كغريب، كان يقتني الكثير من الجرائد، يسلّم نفسه لبعض كؤوس من النّبيذ الأبيض بالزّبيب في يومه الثّاني. يسبّب له ذلك ثمالة خطرة من جانب أنّها أنسته اسم جوزي.

– أيّها النّادل، كم يكفي من الوقت لأتحصّل على باريس بالهاتف؟

أعاد كتابة روايته. الجملة الأولى كانت جملة أخلاقيّة فصيحة. «السّعادة هي أكثر الأمور المُفتَرى عليها إطلاقاً». إلخ. هذه الجملة بدت صحيحة لبرنارد. صحيحة وعديمة الفائدة. لكنّها تُطلّ في أعلى الصّفحة. الفصل I. «السّعادة هي أكثر الأمور المُفتَرى عليها إطلاقاً. جان جاك كان رجلاً سعيداً، يُقال عنه السّوء». ودّ برنارد لو أنّه بدأ بشكل آخر. «قرية بواسي الصّغيرة تلوح لعيني المُسافر بلدَة هادئة حيث الشّمس» إلخ. لكن لا يُمكنه المواصلة. يرغب في الوصول إلى الضّروري بسرعة. لكن أيّ ضروريّ وما هي أصلاً مسألة الضّروريّ. كان يكتب ساعة في الصّباح؛ يخرج لاقتناء الصّحف، يحلق ثمّ يفطر. بعد ذلك يعمل ثلاث ساعات خلال المساء، يقرأ قليلاً (روسو) ويخرج في نزهة إلى غاية العشاء بعد

ذلك إمّا سينما أو لمرّة واحدة مبغى پواتيي، ليس أكثر انحطاطاً من غيره حيث اكتشف أنّ العزوبيّة تعيد للأشياء طعمها.

الأسبوع الثّاني كان أقسى. روايته كانت رديئة. قرأها بأريحيّة واعترف لنفسه أنّها سيّئة. ليست حتّى سيّئة، أفظع. لم تكن مملّة فقط بل مملّة في العمق.

كان يكتب كما تُقَلّم الأظفار. بانتباه ومتعة عظيمين. راقب أيضاً حالته الصحّية، لاحظ الهشاشة المُستجدّة لكبده، وتشنّج ردود أفعاله، وكلّ الدّمار الخفيف الذي تلحقه بالمرء الحياة في باريس. يحدث أن ينظر إلى نفسه في المرآة الصّغيرة لغرفته، بعد منتصف النّهار، ويستدير ناحية الحائط، مفتوح الذّراعين ضاغطاً جسمه على القشرة الباردة القاسية بعينين مُغمَضتين. يحدث له أيضاً أن يكتب رسالة مُقتَضبة ويائسة لألان ماليغراس. ويرسل هذا الأخير بعض النّصائح: انظر حولك، الانشغال عن النّفس، إلخ. نصائح بلهاء، يعرف برنارد ذلك. لا أحد أسعفه الوقت ليرى نفسه حقّاً. وأغلب النّاس لا يبحثون في الآخرين عن غير العين ليروا فيها أنفسهم، هنا بغموض محوطاً بحدوده، برنارد يُقاوم. لن يسمح لنفسه بالهرب لأجل أحضان امرأة من پواتيي.

لا فائدة من وراء ذلك. يعلم هذا جيّداً، إلّا إذا كان يستلذّ التّعذيب. سيعود إلى باريس ومخطوطه المُكتَمل تقريباً تحت إبطه. سيدفع به إلى مُحرّره كي ينشره. وسيحاول رؤية جوزي. ونسيان نظرة نيكول. كان كلّ ذلك بلا طائل. إلّا أنّه من قناعته بهذه اللّاجدوى كان ينهل نوعاً من السّكينة القاسية. يعرف أيضاً بأيّ عبارات يمكنه أن يصف پواتيي ولهوه فيها. أيّ نشوة كانت تعتريه أمام نظرات النّاس الذّاهلة وهو يروي قصّة هروبه هذا! أيّ فكرة غائمة حتّى مع أصالتها! ستُلهِمه تلك النّظرة! ثمّ أخيراً بأيّ حياء رجوليّ سيقول: «الأهمّ هو أنّي اشتغلت»، يعرف سلفاً كيف يمنح الأسلوب لكلّ ذلك. لكنّه لا يعير اهتماماً كبيراً. نافذته مفتوحة، يُصغي، اللّيل، المطر يهطل على پواتيي، يتبع بعينيه أضواء

الطّريق النّادرة لسيّارات أثناء مرورها تضيء الجدار بالورديّ ليختفي سريعاً تاركاً إيّاه للظّلال. مُستلقياً على ظهره، ساعداه تحت رأسه، العينان مفتوحتان، جامداً، برنارد كان يُدخّن سيجارته الأخيرة في اليوم.

إدوارد ماليغراس لم يكن غبيّاً. كان شابّاً مخلوقاً للسّعادة أو للتّعاسة، تخنقه اللّامبالاة. لذا كان سعيداً بالعثور على بياتريس وحُبّها.

سعادته التي تكمن في أن يحبّ المرء والتي لم يصادفها أبداً – المُتداول بين البشر الذين يعتبرون الحبّ كارثة إذا لم يتمّ اقتسامه – يثير لدى بياتريس الغرابة. إثارة دهشتها وفّرت خمسة عشر يوماً، الأمر الذي لم يكن لتُحقّقه وسامة إدوارد. بياتريس دون أن تتّسم بالبرود لم يكن لديها ميل كبير لعلاقة الحبّ الجسديّة. تعتقد أنّها مسألة نقيّة. بل لقد ظنّت في فترة ما أنّها امرأة يغلب عليها الإحساس وهو ما سوّل لها خيانة زوجها. صعوبات الزّنا التي كانت دائماً نادرة في بيئتها، سرعان ما كانت تجنح إلى القطيعة الوحشيّة اللّازمة، الأمر الذي يعذّب عشيقها ويزعج زوجها الذي اعترفت له بكلّ شيء كما جاء في المشهد الثّالث. يتمتّع زوجها بحسّ الصّواب ونبوغ في التّفاوض لذا اعتبر من العبث أن تعترف له بياتريس بعشيق في اللّحظة التي تطلب فيها الانفصال «كان عليها أن تصمت على الأقلّ» فكّر فيما بياتريس راحت تتّهم نفسها بصوت رتيب إذ لم تكن تضع مكياجها.

إدوارد ماليغراس أبدى إذًا وجهاً عند خروج الفنّانين، على باب الكوافير، وفي حجرة الحاجب. لم يكن يوماً يُفكّر في أنّه سيكون محبوباً والآن هو في انتظار أن تمنحه بياتريس ما يظنّه دليلاً على ذلك. لسوء الحظّ اعتادت بياتريس على هذا العاشق الأفلطوني وليس أصعب من تغيير هذه العادة لدى امرأة خصوصاً بلا عقل. ذات مساءٍ رافقها إدوارد حتّى باب شقّتها وطلب منها احتساء كأس أخيرة عندها. يجدر القول إنّ إدوارد محظوظ لأنّه لا يعي الكثير عن طقوس هذا الجملة. كان ببساطة

ما زال يشعر ببقيّة عطش فقد تكلّم كثيراً عن حبّه ولا يملك سنتاً واحداً ليعود إلى بيته. العودة بهذه الحالة من العطش ترعبه.

- لا يا صديقي إدوارد. قالت بياتريس برقّة، لا. الأفضل أن تعود.

- إنّما أنا فقط أشعر بعطش فظيع، كرّر إدوارد.

- لا أريد ويسكي بل كأس ماء.

وأضاف بأدب:

- وأخشى أن تكون المقاهي مُقفلة في هذه السّاعة.

تبادلا النّظرات. أضواء الشّارع أظهرت خطوط وجه إدوارد الحسنة، وكان الطّقس بارداً وبياتريس لا تنوي بلا رغبة في أن ترفض لإدوارد الجلوس في ركن من الموقد في مشهد حافل بالوقاحة والأناقة. صعدا إذًا. أشعل إدوارد الحطب، وجهّزت بياتريس طبقاً. جلسا في ركن من الموقد، أخذ إدوارد يد بياتريس وقبّلها؛ بدأ يفهم أنّه في المكان وبدأ الخوف يدبّ فيه.

- سعيدة لأنّنا أصدقاء إدوارد. بادرت بياتريس حالمة، قبّل كفّ يدها.

- أرأيت، واصلت، في مناخ المسرح - وأحبّه لأنّه محيطي- هناك أغلبيّة ما من النّاس، لا أقول متبجّحة، لكن أقول دون حيويّة، أنت شابّ، إدوارد، يجب أن تظلّ هكذا.

كانت تتحدّث برصانة ساحرة. إدوارد ماليغراس أحسّ إذًا بشبابه؛ خدّاه مُستعران. ضغط بشفتيه على معصم بياتريس.

- اتركني. قالت فجأة، لا يجب. أنا أثق بك. أنت تعرف هذا.

لو كان لإدوارد سنوات أخرى لأصرّ، لكن ليس لديه وهذا أنقذه. نهض، اعتذر واتّجه نحو الباب. فقدت بياتريس مشهدها، دورها الأنيق، ستضجر، لا تشعر بالنّعاس. كلمة واحدة يمكن أن تنقذ الموقف. قالتها:

- إدوارد.

استدار.

- عُدْ.

مدّت له يديها كامرأة تُسلّم نفسها. ضمّهما إدوارد طويلاً، ثمّ مأخوذاً بسنّه، أخذ بياتريس بين ذراعيه، بحث عن ثغرها، وجده، أنَّ قليلاً من فرط السّعادة لأنّه يُحبّ بياتريس. مُتأخّراً في قلب اللّيل، كان إدوارد لا يزال يهمس بكلمات الحبّ، رأسه على صدر بياتريس التي تنام غير مُدركة من أيّ الأحلام ولا من أيّ غيب تأتي الكلمات.

الفصل 5

لمّا استيقظ إدوارد بجوار بياتريس ندّت عنه حركة سعادة يمكن التعرّف عليها فوراً، تلك التي تُعطي سبباً للحياة والتي سنقول عنها لاحقاً عندما يترك الشّباب مكانه للعمى، إنّنا نفتقدها. استيقظ، نظر حوله، مُمَزَّقاً بين أهدابه وبين كتف بياتريس والذّاكرة، تلك النّهمة التي لا تشبع والتي تملأ حتّى أحلامنا وتقفز إلى حناجرنا حالَمَا نستيقظ. عادت إليه الآن. كان فرحاً ومدّ يده إلى ظهر بياتريس العاري، إلّا أنّ بياتريس تعرف جيّداً تأثير النّوم على صبغتها، والأشياء الوحيدة الطّاهرة بالنّسبة إليها كانت الجوع، العطش والنّوم. انزاحت إلى النّاحية الأخرى من السّرير. ووجد إدوارد نفسه وحيداً.

كان وحيداً. ذكريات رقيقة ازدحمت في حنجرته. لكنّه حدَسَ رويداً أمام هذا النّعاس، وهذا الهروب، الهروب العظيم في قصص الحبّ. أحسّ بالخوف. لو كان الأمر بيده لجذب بياتريس إليه ولَوَضع رأسها على كتفه ولَشكرها. إنّما ثمّة هذا الظّهر المُتَعنّت، وهذا النّوم الجبّار. من تحت الغطاء إذًا داعب بحركة إذعان هذا الجسم الفارع ذا السّخاء المشبوه.

كانت يقظة رمزيّة، لكن إدوارد لم يفهم الأمر على هذا النّحو. لا يُمكنه بدءاً من هذه اللّحظة التّسليم بأنّ شغفه ببياتريس سيقتصر على التّالي: التّحديق بثبات إلى ظهر. الرّموز نبتدعها بأنفسنا، بانتكاس حين تسوء الظّروف. لم يكن مثل جوزي التي تستيقظ في الوقت نفسه، تنظر إلى ظهر حبيبها، قويّ وناعم في الفجر، تطلق زفرة قبل أن تعود إلى النّوم. جوزي كانت أكبر من إدوارد.

منذ ذلك الحين أصبحت هناك حياة مُستَقرّة تجمعه ببياتريس. ينتظر خروجها من المسرح، يحاول أن يتناول الغداء معها عندما ترغب هي في ذلك. بياتريس تمنح الغداء مع النّساء نوعاً من القداسة، فقد قرأت في مكان ما أنّه طقس منتشر في الولايات المُتّحدة، مُوقنة أنّ عليها التعلّم من الكبار. لذا كانت تتناول الغداء أحياناً مع ممثّلات قديمات يُكنِنَّ لها الغيرة بسبب نجمها السّاطع وكنّ سيقدنها بتخميناتهنّ إلى عقدة نقص لو لم تكن من مرمر.

الشّهرة ليست أمراً يتفجّر بل يصنع الإيحاء. ستظهر يوماً في شكل حدث سيعتبره المعنيّ حاسماً يتمثّل بالنّسبة إلى بياتريس في اقتراح من أندريه جوليو، مدير المسرح، ذوّاق في الطّبخ ولديه مواهب أخرى.

عرض عليها دوراً كبيراً ما يكفي في إنتاجه القادم، في أكتوبر. دعاها إلى فيلّته في «ميدي» لتحفظ الدّور. أرادت بياتريس مهاتفة برنارد. تعتبره «ولداً ذكيّاً» وإن كان قد حرّف هذا الوصف في مناسبات عديدة. فوجئت بمعرفة أنّ برنارد في پواتيي: «لكن، ماذا يفعل في پواتيي؟».

هاتفت نيكول. صوت الأخيرة كان وجيزاً. استفسرت بياتريس:

- يبدو أنّ برنارد في پواتيي؟ ماذا يجري؟

- لا أدري. قالت نيكول، إنّه يعمل.

- منذ متى؟

- شهرين. قالت نيكول وانفجرت باكية.

اضطربت بياتريس. ما زالت تحافظ على طيبة ما. وصوّر لها خيالها برنارد عاشقاً مجنوناً بزوجة رئيس بلديّة پواتيي، وإلّا خلاف ذلك كيف يمكن تحمّل الرّيف؟ واعدت نيكول، ووجدت نفسها مدعوّة من قبل أندريه جوليو، ولأنّها لم تجرؤ على رفض الدّعوة فقد هاتفتْ جوزي.

جوزي كانت تقرأ في شقّتها، في تلك الشقّة التي تشعر فيها بالضّيق حيث الهاتف يثيرها ويخفّف عنها في آنٍ.

فسّرت لها بياتريس الوضع مُؤزِّمة إيّاه. لم تفهم جوزي شيئاً، فقد تلقّت بالأمس رسالة حارّة جميلة من برنارد عبّرَ لها فيها عن حبّه بهدوء، ولا ترى في القصّة دور السيّدة في پواتيي. وعدت بالذّهاب إلى نيكول وزارتها بالفعل لأنّها تنجز ما تعد.

زاد وزن نيكول. لاحظت جوزي ذلك حالَما وقَعَت عليها عيناها. التّعاسة تدفع بالنّساء إلى السّمنة، يمنحهم الطّعام طمأنينة على حدس البقاء. شرحت جوزي أنّها أتت نيابة عن بياتريس ونيكول التي ترعبها بياتريس ندمت بشدّة على نوبة البكاء المُرّ، أحسّت الآن بالارتياح. جوزي كانت نحيفة بوجه مؤثّر مراهق، وحركات لصّ. ونيكول التي لا يمكنها التكهّن بمقدار أريحيّتها بدت خرقاء أكثر ممّا هو حالها مع الحياة.

– ما رأيكِ أن نخرج إلى الجبل؟. اقترحت جوزي.

كانت تقود بشكل جيّد، بسرعة، سيّارة أمريكيّة كبيرة. نيكول كانت متكوّمة في الجهة الأخرى. كانت جوزي موزّعة بين السّأم وبين أحاسيس غامضة بأنّها تؤدّي واجباً. ما زالت تتذكّر رسالة برنارد:

«جوزي، أحبّك، هذا بشع بالنّسبة إلَيّ. أحاول العمل هنا دون جدوى. حياتي عبارة عن غثيان بلا موسيقى؛ أعلم أنّك لا تحبّينني ولِمَ قد تُحبّينني؟ هذا حرام، فنحن «متماثلان». أكتب لك هذا لأنّه لم يعد له قيمة. أعني لم يعد من المهمّ أن أكتب لك وأن لا أفعل. إنّها المزايا الوحيدة للوحدة. نقبل ونترك ناحية من الغرور. ثمّة طبعاً ذاك الشابّ، وأنا أكرهه». إلخ.

تتذكّر تقريباً كلّ جملة. قرأت الرّسالة وهي تتناول فطور الصّباح، فيما جاك كان يقرأ أيضاً، الفيچارو Le Figaro التي اشترك فيها والدها. وضعت الرّسالة على منضدة السّرير، مع شعور فظيع بالجسارة. نهض جاك وهو يُصفّر ويهتف كعادته بأنّ الصّحف لا معنى لها، فلا تتوصّل إلى تفسير لحرصه على قراءتها بعناية. «لعلّه قتل امرأة ثريّة» فكّرت ضاحكة. ثمّ استحمّ، خرج مُرتدياً معطفه القطنيّ الطّويل وقبّلها قبل اللّحاق بمحاضراته.

ذُهلت من نفسها كيف لم يبدُ لها مقيتاً ولا يُحتَمل. «أعرف فندقاً حيث توجد نار الحطب» قالت لتكسر صمت نيكول. بِمَ كانت ستُجيبها؟ «زوجك يُحبّني، لكنّي لا أحبّه، لن أفتكّه منك وسيصله ذلك». لكنّ ذلك لا يعني خيانة ذكاء برنارد. وفيما يتعلّق بنيكول، كلّ شرح سيكون بمثابة الإعدام.

تناولتا الفطور وهما تتحدّثان عن بياتريس. نيكول كانت مُقتنعة بحبّهما المُتَبادل، بوفائهما لبعضهما، وجوزي لا تنكر هذه النّقطة. أحسّت بأنّها طيّبة ومُخفقة. مع أنّ نيكول كانت تكبرها بثلاث سنوات. غير أنّها لا تملك لها شيئاً. أبداً. صحيح أنّ هناك نوعاً من الغباء الأنثويّ المُخصّص للرّجال. جوزي بدأت تدريجيّاً تغتاظ، وتكره نيكول. تردّدها أمام قائمة الطّعام. نظرتها المذعورة. في المقهى؛ كان هناك صمت كسرته نيكول فجأة:

- أنا وبرنارد، ننتظر طفلاً.

- اعتقدتُ... قالت جوزي.

تعرف أن نيكول تعرّضت لولادتين مُبكّرتين فاشلتين وأنّها مُحذّرة بعدم الوقوع في الحمل.

- أريد طفلاً. قالت نيكول.

كانت مُطرِقة، بسحنة عناد. جوزي رمقتها مندهشة.

- هل أخبرتِ برنارد؟

- لا.

- إلهي، فكّرت جوزي، يا لها من امرأة توراتيّة وعاديّة. تعتقد أنّ مُجرّد مجيء الطّفل سيجعلها تقيّد رجلاً وتضعه في موقف مريع. لن أكون أبداً امرأة توراتيّة. حتّى يأتي ذلك اليوم على هذه أن تكون تعيسة.

- عليكِ أن تكتبي له. قالت جوزي بحزم.

- لا أجرؤ. قالت نيكول. عليَّ التأكّد أوّلاً... أنّ شيئاً لن يحدث.

- أظنّ أنّ عليكِ إخباره.

لو حصل في المرّات السّابقة وبرنارد لا يكون هذا... جوزي أصبحت

كامدة من الخوف. لا تتخيّل برنارد أباً. أمّا جاك... فبلى. جاك من جانبه في السّرير سيكون منزعجاً لكن بابتسامة على شفتيه وهو يلقي نظرة على الطّفل. لا بدّ أنّها تهذي.

– لنعُد. قالت.

قادت السيّارة ببطء إلى باريس. لمّا وصلتا إلى الشّون إليزيه أمسكت نيكول يد جوزي.

– لا تعودي بي حالاً. قالت. كان في صوتها توسُّل جعل جوزي تفهم كيف تسير حياة نيكول: هذا الانتظار الفردي، هذا الخوف من الموت، هذا السرّ. أشفقت عليها بعمق. دخلتا قاعة سينما. بعد عشر دقائق خرجت نيكول مترنّحة تتبعها جوزي. حوض الغسيل كئيب. أسندت جوزي نيكول التي كانت تتقيّأ. ماسكة بجبينها المُتعرّق، ومغمورة بإحساس رعب وتعاطف. لدى عودتها وجدت جاك، الذي أبدى بعض الأحاسيس كما روت له يومها، حتّى أنّه استخدم عبارة «مسكينتي». ثمّ عرض عليها الخروج مُتخلّياً لأوّل مرّة عن دروس الطبّ.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل 6

حاولت جوزي على مدى يومين الاتّصال ببرنارد لتطلب منه العودة. برنارد صار يكتب ولا يُرسل. حاولت جاهدة أن تقنع نيكول بالذّهاب إلى پواتيي. لكن نيكول كانت ترفض بعناد؛ باتت الآن تشعر بآلام متواصلة انتهت بإفزاع جوزي. قرّرت إذًا اللّحاق ببرنارد بسيّارتها وطلبت من جاك مرافقتها. تعنّت جاك مُتعلّلاً بالدّروس.

- لكن لن يطول الأمر، ذهابٌ وإيّاب. أصرّت جوزي.

- هذا سبب إضافي. يعني ليست بعيدة.

ودّت لو ضربته. كان حاسماً، كانت دائماً متساهلة معه وتُعطيه النّفيس بسخاء دون حساب حتّى تراه متردّداً لحظة، مُرتبكاً ومُدافعاً عن نفسه. أخذها من كتفها بصورة لا تخلو من نفوذ:

- تقودين جيّداً، تحبّين أن تكوني وحدك، ثمّ من الأفضل أن تقابلي ذلك الشّخص بمفردك. لا تعنيني أنا حكايته مع زوجته. ما يهمّني فقط هو حكاياتي معك أنتِ.

خففت أهدابه وهو يتلفّظ بجملته الأخيرة.

- أوه! قالت، تعرف، مضى وقت طويل...

- لا أعرف شيئاً. قال. حين أعرف سأرحل.

رمقته باندهاش وموجة من الأحاسيس خالجتها تُشبه الأمل.

- ستكون غيوراً؟

- ليس هذا تماماً، لا أقاسم.

سحبها نحوه فجأة وقبل وجنتها. الحركة الخرقاء التي قام بها دفعت بجوزي إلى إحاطة عنقه بذراعها وضمّه إليها. قبّلت رقبته، وسُترتَه من جهة كتفه مُبتسمة قليلاً ومردّدة:

- ستذهب، ستذهب؟ بنبرة تأمّل. لكنّه لم يتحرّك، لم يتفوّه بكلمة. انتابها شعور بأنّ دبّاً يباغتها في غابة، دُبّاً ربّما يحبّها لكنّه يقدر على التّعبير لها عن ذلك، مُعتقَلاً داخل صمته الحيوانيّ.

- حسناً. قال جاك أخيراً مُغمغماً.

انطلقت وحدها إذًا خلف مقود سيّارتها، ذات صباح باكر، سارت بتأنٍّ في الرّيف بسبب الشّتاء. كان الطّقس بارداً وشمس شاحبة، لامعة تلقي بضوئها على الحقول العارية. أنزلت غطاء مُحرّك السيّارة، رفعت ياقة السّترة التي استعارتها من جاك وأقسى البرد وجهها. الطّريق كانت مقفرة. عند الحادية عشرة توقّفت بعد شوط من الطّريق.

أخرجت أصابعها المُتجمّدة من القفّازين وأشعلت سيجارة، الأولى منذ بداية الرّحلة. تسمّرت لحظة. رأسها متكئ على المقعد، مُغمضة العينين، ساحبة الدّخان ببطء، رغم البرد أحسّت بالشّمس تداعب أهدابها. الصّمتُ كان مُطبقاً، عندما فتحت عينيها رأت غراباً يخفق بجناحه في الحقل القريب منها.

خرجت من السيّارة وتوغّلت في طريق بين الحقول. كانت تخطو كما تفعل في باريس، بخمول وقلق. وتجاوزت مزرعة، بعض الأشجار، الطّريق يتواصل في السّهل على امتداد البصر. استدارت بعد فترة فرأت سيّارتها السّوداء الوفيّة لا تزال رابطة على الطّريق.

عادت ببطء أكبر. كانت في حال جيّدة. «مؤكّد أنّ هناك إجابة. قالت بصوت مرتفع، وحتّى لو لم توجد...» حلّق الغراب ناعقاً. «أحبّ الهدنة»، تابعت بصوت مسموع وهي تلقي بعقب سيجارتها على الأرض، داسته بقدمها بحرص.

وصلت إلى پواتيي عند السّادسة وتطلّب الأمر بعض الوقت كي تجد فندق برنارد. الصّالة الرنّانة الدّاكنة للإيكو دي فرانس بدت لها جنازيّة. رافقوها إلى غرفة برنارد عبر رواق طويل مكسُوٍّ بسجّاد سُكّري حيث تعلق الأقدام. برنارد كان يكتب مولياً ظهره للباب. قال فقط: «ادخُل»، بصوت شارد. مُستغرباً من الصّمت، التفت. عندها فكّرت فقط في رسالته وما الذي يمكن أن يعنيه بوجودها بالنّسبة إليه. تراجعت إلى الوراء. لكنّ برنارد قال: «جئتِ!» ومدّ لها يده وقد تغيّرت ملامحه بشكل دفع بجوزي للتّفكير بصورة ضبابيّة:

– هذا هو إذًا وجه رجل سعيد. أخذها في مواجهته، وأجال رأسه في شعرها ببطء مؤلم وظلّت متحجّرة لا تفكّر سوى بـــ: «يجب أن أصحّح له، هذا بغيض. يجب أن يعلم». لكنّه كان يتحدّث وكلّ كلمة كان يقولها مثّلت عائقاً أمام الحقيقة:

– لم أكن آمل، لا أجرُؤ. هذا أكثر من رائع. كيف أمكنني العيش هنا كلّ هذا الوقت بدونك؟ هذا غريب، السّعادة...

– برنارد. قالت جوزي، برنارد.

– تعلمين، الأمر طريف، لأنّ أحداً لم يكن ليتخيّل أنّ الأشياء ستمرّ على هذا النّحو. تصوّرتها ستمرّ بعنف، أن أطوّقك بالأسئلة ثمّ أتصرّف كأنّي أقع على شيء مألوف جدّاً. شيء ما ينقصني، أضاف.

– برنارد، عَلَيّ أن أقول لك...

لكنّها تعرف سلفاً أنّه سيقاطعها وأنّها ستصمت:

– لا تقولي لي شيئاً، إنّه الأمر الحقيقيّ الوحيد الذي يحدث لي منذ زمن طويل.

لعلّه مُحقّ، فكّرت جوزي. لديه زوجة تحبّه بحقّ، وهي بجدّية في خطر، هو على مشارف مأساة، إنّما الحقيقة الوحيدة بالنّسبة إليه هي الغلطة التي يرتكبها، هذه التي أتركه يقترفها. سعادة حقيقيّة، قصّة حبّ

مُلَفّقة. لا نُجهز على الخيول. وعَدلت عن الكلام. يمكنها أن تصمت لأنّ ما أحسّت به لم يكن الشّفقة ولا السّخرية، بل شراكة هائلة في الجريمة. يوماً ما بلا شكّ ستخطئ مثله، ومثله ستتسلّى بالسّعادة التي يمنحها الحبيب الخطأ.

أخذها إلى المقهى التّجاري لتناول النّبيذ الأبيض بالزّبيب. حدّثها عن نفسها. عن نفسه، تحدّث جيّداً. مضى وقت طويل لم تحدّث أحداً بهذا الإسهاب. كانت فريسة تعب كبير ورقّة كبيرة. أطبقت عليها پواتيي: السّاحة الصّفراء والرّماديّة، المارّة النّادرون، النّظرات الفضوليّة لبعض الحرفاء، السّنديان المُفلس بسبب الشّتاء. كلّ هذا ينتمي إلى عالم عبثيّ عرفته سابقاً وينبغي أن يكون لها معه موعد هذه المرّة أيضاً.

تلك اللّيلة، نائمةً بجانب برنارد، هذا الجسد الفارع اللّامبالي يضايقها قليلاً، إلى جانب ذراعه المُتملّكة التي ألقاها فوق كتفها. راقبت طويلاً أضواء السيّارات على زهور الحائط. هادئة. بعد يومين ستطلب من برنارد العودة. ستهبه يومين من حياتها. يومين سعيدين. بلا شكّ سيكلّفها ذلك غالياً، هو أيضاً. لكنّها فكّرت أنّ برنارد كان عليه البقاء ليالي بأكملها يراقب الأضواء وهذه الزّهرات الكبيرة القبيحة المرسومة بعناية. وأنّها تنوبه الآن. حتّى لو كان ذلك عن طريق كذب الرّحمة.

الفصل 7

قرّر أندريه جوليو اتّخاذ بياتريس عشيقة. وجد لديها الموهبة من ناحية وغموض الطّموح الوحشيّ الذي تملكه من جهة أخرى وكلاهما يُهمّه. في النّهاية لقد أبدى دائماً ضعفاً إزاء جمالها وفكرة ارتباطهما تُشبع لديه إحساس الجماليّة المُتَيَقّظ عنده على الدّوام. في الخمسين، كان نحيفاً إلى درجة التيبّس بتعبير ساخر مُنحرف، وحركات مُصطَنعة لشابّ التصقت به سمعة الشاذّ فترة من الزّمن.

حين تكون منتحلة فإنّ الجماليّة تقود - وهذا معروف - مسافة تبعث على النّدم؛ أندريه جوليو كان من الرّجال الذين يُقال عنهم «وديع» لأنّهم يُمارسون نصف الاستقلال، نصف الوقاحة في مجال الفنون. وهما لا يُحتملان لولا حسّ سخرية دائماً تجاه نفسه وسخاء مادّيّ حقيقيّ.

أن يفتح بياتريس من جهة الطّموح بالنّسبة إليه كان دائماً سيُمثّل اختياراً سهلاً. يعرف جيّداً هذا النّوع من الصّفقات الضّمنيّة إلى حدّ يجعل منه أمراً مُسلّياً. قرّر إذًا الدّخول إلى مسرحيّات داخل بياتريس وأن يلعب دوره الذي تكهّن بأن يكون دور موسكا Mosca [9] في: خضراء بارما المُصفَرّة[10]. إنّما موسكا ظافر. لم تكن لديه عظمة موسكا طبعاً، ولا بياتريس تتحلّى بعظمة لاسنسيفيرينا La sanseverina [11]، وربّما

9- موسكا: جسّد رجل السّياسة في رواية ستندال وكان الوزير الأوّل لدوق بارما.

10- «خضراء بارما المُصفَرّة» La chartreuse de Parme: رواية لستندال وهي الرواية التي نال بها شهرته .

11- لاسنسيفيرينا La Sanseverina : دوقة بارما في رواية ستندال المذكورة.

وحدهُ الصّغير إدوارد ماليغراس من لديه القليل من جاذبيّة فابريس Fabrice [12]. لكن ما الذي يعنيه؟

يعشق المواضيع الرّديئة. وإنّه نادراً ما تلوح أمامه رداءة حياته الرّشيقة، كيأس كبير أليف. وجدت بياتريس نفسها إذًا مُمَزّقة بين القوّة وبين الحبّ أو الأحرى بين صورتين لإيپينال Epinal [13] بين القوّة وبين الحبّ. من جهة جوليو، ساخراً، مُهدّداً، استعراضيّاً، ومن جهة أخرى، إدوارد، رقيقاً، وسيماً وشخصيّة روائيّة. كانت متحمّسة. قسوة الاختيار تمنحها حياة مُذهلة، أكثر ممّا لو رجّحت الكفّة لصالح جوليو، لأسباب مهنيّة بحتة. هذا يجعلها مبذّرة فيما يتعلّق بالانتباه لإدوارد ولإشارات الودّ التي كان من المؤكّد أنّه سيزهد فيها لو كان سيّد الميدان وبمفرده، الحياة تعطي باليد وتستعيد باليد الأخرى.

منح جوليو إذًا دون شروط الدّور الرّئيس في مسرحيّته القادمة لبياتريس. بل لقد أثنى على وسامة إدوارد ولم يفصح بأيّ كيفيّة عن نواياه. لكنّه بلغ بوضوح سعادته بالخروج مع بياتريس في حال هجرت إدوارد. هذا يبدو أملاً مُتحضّراً لكنّه أكثر من ذلك، لأنّه يعرف جيّداً أنّ النّساء من نوع بياتريس لا تهجر رجلاً إلّا لأجل غيره. سُرَّت بياتريس بالدّور في البداية، ثمّ سرعان ما أبدت توتّراً وقلقاً بسبب عدم دقّة حكم جوليو.

حُبّ إدوارد أصبح باهتاً أمام اللّامبالاة الودودة لجوليو. يغويها الانتصار.

اصطحبها جوليو ذات مساء للعشاء في بوجيفال Bougival [14].

كانت ليلة أقلّ برودة من سابقاتها، تنزّها مشياً على ضفاف النّهر.

---

12 – فابريس: التّجسيد النموذجي للشاب الرومانسي في رواية ستندال وهو شاب ثريّ وسخيف ومتوهّم وحالم بالبطولة.

13 – إپينال: إقليم فرنسي أثري يوجد في منطقة الشّرق الكبير.

14 – بوجيفال: مقاطعة فرنسيّة تقع شمال فرساي على ضفاف نهر السين.

قالت لإدوارد إنّها ستتعشّى مع والدتها - بروتستانتيّة زاهدة لا تحبّ تهوّر ابنتها- . هذه الكذبة التي كانت ستكلّفها ما تكلّفه كذبة، تجاوزتها. «ليست مُلزمة بتقديم مبرّرات لأحد» فكّرت بانزعاج وهي تكذب على إدوارد. إدوارد لم يطلب منها تقارير عنها، طلب منها فقط أن تسمح له بأن يكون سعيداً وخاب بطيبة لأنّها لن تخرج معه إلى العشاء. تركت له شكوكاً وغيرة. لم تكن قادرة على الحسم فيما إذا كان يحبّها مع ذلك الكمّ الهائل من الثّقة التي تبدأ بها كلّ قصّة حبّ.

أخذ جوليو يدها وهما يتمشّيان مانحاً إيّاها أذناً صاغية وهي تتحدّث عن جمال القوارب. بلى، مع إدوارد تلعب بياتريس بكلّ سرور دور المرأة الفاقدة الاهتمام قليلاً، فيما يروق لها مع جوليو أن تتقمّص دور الطّفل المُتحمّس.

- كم هو جميل! قالت إذًا. لا أحد تحدّث بشكل جيّد عن السّين Seine ومراكبه، حقّاً، فيرلان[15] ربّما...

- ربّما هذا صحيح...

جوليو كان منتشياً وهو ينصت لبياتريس وهي تريق الشِّعر بإسهاب. « لعلّي لستُ أتعقّبها إلّا لأنّها تجعلني أضحك» فكّر، واغتبط بفكرته.

- حين كنتُ شابّة...(توقّعت بياتريس ضحكة، فأتت فعلاً)، حين كنتُ صغيرة، تداركت، كنتُ أمشي هكذا على طول الماء وكنتُ أقول إنّ الحياة مليئة بأشياء جميلة وكنتُ أنا نفسي ممتلئة بالحماس. هل تصدّقني، لقد حافظتُ على القليل منه.

- أُصدّقُكِ. قال جوليو، وهو يزداد سعادة.

- في حين... في فترتنا، من منّا ما زال يهتمّ بالمراكب ويتحمّس؟ لا أدبنا، لا السّينما، لا مسرحنا...

أومأ جوليو برأسه دون إجابة.

---

15 - فيرلان: شاعر فرنسي وُلد سنة 1844.

– أذكر في سنّ العاشرة، استأنفت بياتريس حالمة... لكن ما الذي قد يعنيه من طفولتي! قاطعت نفسها.

هجومها المباغت ترك جوليو أعزل. ارتبك لحظة.

– حدّثني عن طفولتك. قالت بياتريس. لا أعرفك جيّداً. أنت لغز بالنّسبة إلى المُحيطين بك...

بحث جوليو يائساً عن ذكرى طفولة إلّا أنّ ذاكرته خانته.

– لم تكن لي طفولة. قال بعمق.

– لديكَ جُمَلٌ رهيبة. قالت بياتريس وضغطت على ذراعه.

طفولة جوليو ظلّت هناك. بينما طفولة بياتريس فقد أثرتها النُّكت العديدة حيث فتنة بياتريس الطّفلة وفوضاها اخترقتا عبقريّة بياتريس. رقّت بشكل ملحوظ. يدها ويد جوليو انتهى بهما المطاف في جيب هذا الأخير.

– يدك باردة. قال بأريحيّة.

لم تُجب واستندت عليه. لاحظ جوليو أنّها جاهزة وتساءل إن كان يشتهيها وإن كانت هذه الملاحظة لا تعنيه كثيراً. اصطحبها إلى باريس. في السيّارة أسندت رأسها على كتفه، جسمها يلامس جسمه. «المسألة مقضيّة» فكّر بنوع من التّعب ورافقها إلى بيتها، لأنّه رغب في أن يقضي ليلتهما الأولى في بيتها. مثل الكثير من المتعبين قليلاً كان يبحث عن مغامرة يغيّر بها مشهد حياته. إنّما فقط أمام البوّابة، الصّمت وانعدام الحركة الصّارم من جهة بياتريس، أطلعاه أنّها نائمة. أيقظها برفق، قبّل يدها وأخذها إلى المصعد حيث استعادت ذهنها.

أمام النّار الخامدة وجدت إدوارد نائماً، ياقة قميصه مُشوّشة حيث تظهر رقبته الأنثويّة الذهبيّة، وفي لحظة تجمّع الدّمع في عينيها. حزينة لأنّها لم تعرف بعدُ ما إذا كانت تهمّ جوليو، وحزينة لأنّها تجد إدوارد وسيماً كما كان ذلك يبدو لها دائماً في المطاعم. أيقظته. قال لها إنّه

يحبذها، بجمل دافئة منتزعة من النّعاس، لم تُواسِها تلك الجُمل. حين كان يرغب في الالتحاق بها كانت تتعلّل بالصّداع.

في تلك الأثناء كان جوليو يسير برشاقة عائداً إلى بيته على الأقدام، يلاحق امرأة، ودخل إلى حانة لم يرتدها منذ عشرين عاماً فوجد ألان ماليغراس ميّتاً من السُّكر.

بعد الأمسية الأولى التي أمضاها مع بياتريس، قرّر ألان ماليغراس أن لا يراها مُجدّداً، إنّه لا يحتمل أن يحبَّ المرء شخصاً إلى هذا الحدّ الغريب عنه. إلى حدّ الانغلاق الذي لا ينقذ منه سوى الانغماس في العمل. غياب برنارد يضاعف مشاغله. حاول إذًا مُستعيناً بنصائح «فاني» نسيان بياتريس. طبعاً لم يستطع. يعلم جيّداً أنّ الشّغف عندما يكون حاضراً فهو ملح الحياة وأنّه يصعب تحت سطوته تجاهل ما تقوم به مع ذلك بقيّة الوقت. هذا لا يمنع أنّه تجنّب رؤيتها. واكتفى بالإكثار من دعوة إدوارد إلى بيته مُتلذّذاً بصورة شنيعة بكلّ علامات السّعادة تلك. بل أحياناً كان يبتدعها. جرح بسيط في عنقه من جرّاء الحلاقة يتحوّل إلى عضّة رقيقة من بياتريس. فهو لا يتخيّلها إلّا شهوانيّة، رغم ضحكة عفويّة من برنارد. والعينان المحوطتان بالأزرق وسحنة الإرهاق البادية على ابن أخيه كانت كلّها ذرائع أمام ألان ليتألّم. كان يُمضي ساعات طويلة في مكتبه يتصفّح مخطوطات جديدة، في كتابة المُلاحظات وملء البطاقات. يضع مسطرة فوق الكرتون، يسطّر تحت العنوان بخطّ أخضر ويقف فجأة، ينحني الخطّ فيكون إعادة البطاقة بقلب يخفق بشدّة. فهو يتذكّر واحدة من جُمل بياتريس أثناء عشائهما المشهود. يضع البطاقة في السلّة ويعيد. في الشّارع يحيّي أصدقاءه، مُتحوّلاً رويداً إلى ذاك المُثقّف المشتّت، الجذّاب بالطّريقة التي ترضي النّاس. كان يقرأ الصّحيفة، صفحة العروض ليسمع في البداية أخباراً عن بياتريس – الأمر الذي بدأ فعلاً يحدث – ثمّ لأنّه وهو ينزل بعينيه على طول الومضات المُتعلّقة بالمسرح ينتهي به الأمر دائماً للوصول إلى العرض الكبير «المُلتبس»

وتحت العنوان بحروف صغيرة، إلى بياتريس. وسُرعان ما رفع عينيه كما لو أنّه يُباغَتُ بخطى وانتبه إلى نميمة الصحافيّين المُتخصّصين. اللّيلة التي سبقت لقاءه بجوليو قرأ: «عطلة مسرح يوم الثّلاثاء» واهتزّ قلبه. يعرف أنّ في وسعه رؤية بياتريس كلّ مساء على المسرح مدّة عشر دقائق. كان دائماً يقاوم. لكنّ فكرة عطلة المسرح تُهشّمه. لم يكن الأمر مطروحاً في ذلك المساء، لكنّه حتّى لم يُفكّر فيه. بياتريس... فاتنة وعنيفة، بياتريس... أخفى عينيه. لا يقدر. حين عاد إلى بيته علم من إدوارد أنّ بياتريس تتعشّى مع أمّها. لكنّ الخبر لم يواسِه. لقد وقع المحظور وصار يدرك درجة إصابته. تعلّل بعشاء، تنزّه حول الفلور Flore [16]، التقى صديقين لم ينفعاه كثيراً لكن وهما يلاحظان شحوبه دفعاه إلى احتساء كأس ويسكي ثمّ كأسين. كان ذلك كثيراً على كبد ماليغراس المُتعب. واصل الشّرب وفي منتصف اللّيل وجد نفسه إلى جانب جوليو في حانة مريبة في ساحة المادلين.

حالة ألان لا ريب فيها. ثمّ إنّ الكحول لا تناسبه. على وجهه الشّاحب الرّقيق ذي الجفون المُتغضّنة يصبح ارتعاش الملامح مفضوحاً. اندهش جوليو وهو يمدّ له يده بميوعة. لم يتخيّل أن يسكر ماليغراس وحده في حانة فتيات. يحبّ ألان، يشعر مُمَزّقاً بين الفضول والسّاديّة والصّداقة، بالاهتمام ناحيته ما دام يهوى الأحاسيس المُقتَسَمة.

سيعرّجان طبعاً على الحديث عن بياتريس «أظنّ أنّك ستكلّف بياتريس في عرضك القادم» قال ألان. كان سعيداً كفاية. مرهقاً وسعيداً. الحانة تدور من حوله. كان في تلك المرحلة من الحبّ ومن الكحول حيث يكون المرء مُجتاحاً بنفسه ولا يكترث كثيراً للـ «آخرين».

- كنتُ للتوّ أتعشّى معها. قال جوليو.

«إذًا كذبت» فكّر ماليغراس، مُتَذكّراً ما أخبره به إدوارد. كان في آنٍ

16 - الفلور Flore: مقهى باريسي مشهور يقع في حيّ ثقافيّ سياحيّ.

خائباً ومسروراً لأنّ هذه الكذبة تعني أنّها غير مُغرمة فعلاً بإدوارد. أن تكون بياتريس كاذبة فهذا يجعلها بعيدة المنال أكثر، لأنّها لن تكون له يوماً. يعلم ذلك. إلّا لأسباب مُتعلّقة بجودة عالية. على كلّ إحساسه الأوّل وحده قادر على منحه قدراً من الرّاحة.

- إنّها فتاة جيّدة. قال، جذّابة.

- جميلة. قال جوليو مُطلقاً ضحكة قصيرة.

- جميلة وعنيفة. قال ألان كأنّه عثر على معادلته، نطق بها بطريقة جعلت جوليو يلتفت إليه.

خيّمت عليهما لحظة صمت، استغلّاها لينظر كلاهما إلى الآخر وليُفكّر كلاهما أنّ أحداً منهما لا يعرف شيئاً عن الآخر رغم علاقتهما الرسميّة والضّربات في الظّهر.

- أضعفُ أمامها. قال ألان بنبرة أرادها خفيفة.

- هذا طبيعيّ. قال جوليو.

اشتهى أن يضحك ويُواسي ألان. ردّة فعله الأولى كانت:

- يجب أن تُسَوّى الأمور. وسرعان ما فهم أنّ ذلك لم يكن صحيحاً. بياتريس وهبت نفسها بسهولة لعجوز أعور. حتّى مع الحبّ لا يُكترث إلّا للأغنياء وألان يحسّ أنّه فقير.

طلب جوليو كأسَيْ «سكوتش». أحسّ أنّ اللّيلة تعد بأنّها طويلة وانتشى. يعشق من كلّ قلبه: وجهاً متبدّلاً، كوباً ناعماً بين يديه، صوت الأسرار الخفيض، اللّيل الممتدّ إلى الفجر، الإنهاك.

- في سنّي ما الذي يمكنني القيام به؟ قال ألان.

جوليو انزعج وأجاب: «كلّ شيء» بصوت حاسم. لقد كان سِنَّهُما.

- ليست لي. قال ألان.

- لا أحد لأحد. قال جوليو كما اتّفق.

– بلى، «فاني» لي. لكن أتدري، هذا فظيع. هذا الاستحواذ. أشعر أنّي مُصاب بداء المفاصل، هذا مُضحك. إنّها الشّيء الوحيد الحيّ. البقيّة...

– ما تبقّى أدب. قال جوليو مع ضحكة صغيرة. أعلم. الضّجر بالنّسبة إليك، هو أنّ بياتريس ليست ذكيّة، هي طموحة، لاحظ، إنّها هكذا في زمن لا يُساوي فيه النّاس شيئاً.

– يمكنني، تابع ألان، أن أمنحها أشياء لا شكّ في أنّها لا تعرفها. أنت تعلم، الثّقة، المراعاة، نوعاً من الرقّة... أوه! ثمّ...

توقّف أمام نظرات جوليو، قام بحركة موسّعة سكب بها القليل من الويسكي على الأرضيّة. اعتذر من المالكة فوراً. أحسّ جوليو تجاهه بالشّفقة.

– حاول صديقي. اشرح لها موقفك. على الأقلّ لو قالت لك «لا» لقُطعت الجسور، وستعلم ذلك.

– الآن؟ في حين إنّها تحبّ ابن أخي؟ هذا لا يعني سوى أن أضحّي بفرصتي الوحيدة، إن كانت لي فرصة.

– أنت مخطئ. هناك أناس يمكن القول إنّهم يحتاجون إلى وقت طويل كي نغويهم. بياتريس ليست منهم. إنّها تختار بنفسها والزّمن لا يلعب دوراً في ذلك.

مرر ماليغراس يده على شعره. ولأنّه لا يملك منه الكثير فقد كانت حركته مسكينة. جوليو يبحث بصورة عامّة عن وسيلة قاتمة يمنح بها بياتريس للعجوز ماليغراس بعدما يحظى بها لنفسه أوّلاً طبعاً. لم يجدها. وطلب كأسين إضافيّتين. في الأثناء ماليغراس كان يتحدّث عن الحبّ. كانت هناك فتاة تسمعه وتوافقه برأسها. جوليو الذي يعرفها جيّداً، أشار عليها بألان وغادر.

في الشّون إليزيه كان الفجر ممتقعاً ومُبَلّلاً، أوّل عطور باريس عطر ريفيّ جعله يتوقّف ليتنفّس عميقاً قبل أن يُشعل سيجارة. وشوش «أمسية رائعة»، مبتسماً، ثمّ خطا كرجل في مقتبل العمر نحو مسكنه.

الفصل 8

- أهاتفكِ غداً. قال برنارد. تخطّى البوّابة برأسه. ينبغي أن يكون قد أحسّ باسترخاء كبير لهذا الفراق كما يحدث في العلاقات الغراميّة العنيفة. نفترق لنجد الوقت للإحساس بالسّعادة. ابتسمت له جوزي. عادت إلى ليل باريس، ضجيج السيّارات وحياتها الخاصّة بها.

- أسرع. قالت.

ظلّت تراقبه وهو يتجاوز باب البناية وينطلق بسيّارته. أخبرته ليلة أمس بالخطر المُحدق بنيكول، وأنّ عليه العودة. توقّعت انتفاضة، خوفاً كبيراً، إلّا أنّ ردّة فعله الوحيدة كانت:

- ألأجل هذا أتيتِ؟

أجابت «لا» دون أن تعلم أيّ درجة من الجُبن بلغت بذلك. ربّما مثل برنارد انتابتها الرّغبة في صونِ أيّام پواتيي الرماديّة الثّلاثة ورقّتها الغريبة: نزهات متأنّية في الرّيف المتجمّد، حوارات طويلة، غياب للجُمل، إيماءات ليل رقيقة، كلّ هذا بفضل القاسم المُشترك لخطئهما، الذي يجعل من كلّ شيء عبثيّاً ونزيهاً على نحو عجيب.

عادت إلى شقّتها عند الثّامنة تقريباً. تردّدت لحظة قبل أن تسأل عاملة الغرف عن جاك. علمت أنّه رحل بعد يومين من رحيلها ناسياً زوج أحذية. هاتفت جوزي عنوان جاك القديم لكنّه كان قد انتقل منه؛ لا أحد يدري أين تحوّل. أقفلت الخطّ. سقط النّور على السجّاد الكبير للصّالون. أحسّت بأنّه سيُقضى عليها من شدّة الإنهاك. حدّقت في نفسها

أمام المرآة. كان لديها خمسة وعشرون عاماً، تجاعيد ثلاث، رغبة في رؤية جاك. تمنّت بقوّة لو يعود متلفّعاً بمعطفه القطنيّ الطّويل وأن تشرح له كم أنّ هذا الغياب لا يعني كثيراً. هاتفت فاني فدعتها إلى العشاء.

هزلت فاني. بدا أنّ ألان كان خارج البيت. أمضت عشاء لا يُحتَمل تقريباً بسبب فاني التي حاولت دون جدوى أن تجعل منه راقياً. أخيراً بعد احتساء القهوة، نهض ماليغراس، اعتذر وغادر إلى النّوم. قاومت فاني بضع لحظات نظرات جوزي المُستفهمة، ثمّ نهضت وقامت بأشياء في الموقد. كانت قصيرة جدّاً.

- شرب ألان كثيراً ليلة البارحة. هو معذور.

- ألان شرب كثيراً؟

ضحكت جوزي فهذا لا يليق بألان ماليغراس بتاتاً.

- لا تضحكي. قالت فاني فجأة.

- المعذرة. قالت جوزي.

فسّرت فاني أنّ ما كان يُعتَقد بأنّه «هُيام» ألان يُفسِد حياتهما. وبلا جدوى حاولت جوزي إقناعها بأنّها حكاية قصيرة عابرة.

- لن يُحبّ بياتريس طويلاً. بياتريس ليست شخصاً مُتاحاً. هي فاتنة لكن لا علاقة لها بالأحاسيس. لا يمكن أن يحبّ المرء بمفرده مدّة طويلة. هي لا...؟

لم تجرؤ على التّفوّه بـــ: «ألم تُمكّنه؟».

وكيف تُمكّن «تُمكّن» شخصاً مُتخلّقاً مثل ألان؟

- لا. طبعاً لا. قالت فاني بسخط. أعتذر إن حدّثتُك عن هذا، جوزي. أحسّت بقليل من الوحدة.

عند منتصف اللّيل غادرت جوزي. خشيت طوال الوقت من أن توقظ جلبتهما ماليغراس فيعود. التّعاسة والشّغف بعجز. خرجت مغمورة بشعور جسيم بالخسارة.

عليها أن تجد جاك. حتّى لكي يضربها أو يُبعدها. أيّ شيء ما عدا هذه التّعقيدات. اتّجهت نحو الحيّ اللّاتيني.

اللّيلة كانت داكنة. تمطر قليلاً. كان رهيباً في باريس هذا البحث العبثيّ حيث التّعب يزدحم في داخلها ويوقظ لديها ضرورة إيجاده. كان في مكان ما في مقهى في شارع السان ميشال، أو عند أحد أصدقائه أو ربّما في شقّة فتاة. لم تعد تعرف هذا الحيّ، والمغارة التي رقصت فيها خلال شبابها الطلّابي أصبحت نقطة سياحيّة. اكتشفت أنّها لا تعرف شيئاً عن حياة جاك. تخيّلته كوجود نموذجي لطالب عنيف قليلاً كما بدا لها دائماً. في الوقت الحاليّ راحت تبحث بيأس في ذاكرتها عن اسم أو عنوان سقط منه. دخلت المقاهي، ألقت نظرة، صفير الطّلبة وتعاليقهم كانت بالنّسبة إليها كالسّياط. منذ زمن لم تعد تذكر أنّها عاشت موقفاً قلقاً، بائساً كهذا. إحساسها باحتمال لا جدوى بحثها، وخصوصاً فكرة وجه جاك الحاسم تُضاعف يأسها.

في المقهى العاشر، رأته. كان مُدبراً يلعب الفليبر. عرفته فوراً بظهره المحنيّ على الآلة واستقامة رقبته التي غزاها شعره الأشقر الخشن. فكّرت آنذاك أنّ شعره طويل مثل برنارد، وأنّها علامة يُستَدلّ بها على الرّجال المُهمَلين. ثمّ لم يحسم إن كان عليها التقدّم. وظلّت مسمّرة دقيقة طويلة بقلب متوقّف.

- هل من خدمة؟

تقمّصت المالكة دور القدر. تقدّمت جوزي. كانت تحمل معطفاً أكثر أناقة من أن يوجد في مكان مماثل. رفعت ياقته بحركة آليّة ووقفت وراء جاك. نادتهُ. لم يستدر فوراً. لكنّها لاحظت حمرة تغزو رقبته وزاوية خدّه.

- تريدين التحدّث معي؟ قال أخيراً.

جلسا دون أن ينظر إليها. سألها أيضاً بصوت مُتشنّج ماذا تودّ أن تشرب، ثمّ خفض نهائيّاً - كما يبدو - عينيه لتقع على يديه المربّعتين.

- حاول أن تفهم. قالت جوزي. وشرعت تروي القصّة بصوت منهك، لأنّ كلّ ذلك في مجمل الأحوال غائم وبلا فائدة: پواتيي، برنارد، أفكارها. هي الآن قبالة جاك، وهو حيّ. ثانية هي أمام هذه الكتلة المضغوطة التي ستُقرّر مصيرها والتي بالكاد تنفع معها الكلمات.

انتظرت، كان الكلام مُجرّد وسيلة للتّخفيف من حدّة الانتظار.

- لا أحبّذ أن يتمّ التّلاعب بي. قال جاك أخيراً.

- ليس هذا... بدأت جوزي.

رفع عينيه. كان رماديّاً وغاضباً.

- لا بل هو كذلك. ونحنُ نعيش مع شخص، لا نقضي ثلاثة أيّام مع شخص آخر. هذا كلّ شيء. أو على الأقلّ نلفت الانتباه إلى ذلك.

- حاولتُ أن أشرح لك...

- لا تهمّني مبرّراتك. لستُ طفلاً. أنا رجل. لقد غادرت أهلي. بل لقد انتقلتُ للعيش بمفردي في مكان غير منزل العائلة.

وأضاف بنبرة مشحونة بسخط أكبر:

- وهناك العديد من الفتيات اللّاتي غادرت لأجلهنّ. كيف وجدتِني؟

- منذ ساعة وأنا أبحث عنك في كلّ المقاهي. قالت جوزي.

كانت مُتعبة وأغمضت عينيها. بدا لها أنّها أحسّت بوزن الهالة الزّرقاء حول عينيها. خيّم الصّمتُ لحظة ثمّ سألها بصوت مُختنق:

- لماذا؟

رمقته دون أن تستوعب.

- لِمَ بحثتِ عنّي مدّة ساعة؟

مكتبة
t.me/t_pdf

أغمضت عينيها، ألقت برأسها إلى الخلف. وريد ينبض في حنجرتها. سمعَتْ نفسها تجيب:

- كنتُ في حاجة إليك.

الإحساس بأنّ ما قالته هو الحقيقة، أخيراً، امتلأت مآقيها بالدّموع.

عاد معها ذاك المساء. حين أخذها بين ذراعيه، عرفت مُجدّداً ماذا يعني جسد، وإيماءات ولذّة.

قبّلت يده ونامت وشفتاها على راحته. ظلّ مستيقظاً مدّة، ثمّ سوّى الغطاء على كتف جوزي بحرص قبل أن يستدير على الجانب الآخر.

الفصل 9

لمّا تخطّى باب بيته، لمح برنارد مُمَرّضتين تتقاطعان. انتابه شعور مزدوج بالكارثة وبعدم قدرته على تقبّلها. تجمّد. أخبراه أنّ نيكول أجهضت اللّيلة قبل الماضية وأنّها رغم تجاوزها مرحلة الخطر، يجب أن تظلّ تحت العناية بقرار من الدّكتور «ماران». تفحّصاه، أصدرا في شأنه حكماً، ترقّبا تفسيراً من جانبه. لكنّه أبعدهما من طريقه دون أن ينبس بكلمة ودخل غرفة نيكول.

كان رأسها ناحيته تحت الضّوء الخافت للّمبة البورسلان التي أهدتها إيّاها أمّها والتي لم يجد برنارد أبداً الشّجاعة ليقول لها إنّها بشعة. كانت شاحبة جدّاً وقسماتها لم تتغيّر لمّا رأته. كان لديها تعبير حيوان مُذعن، تعبير غباء وجدارة في آنٍ.

- نيكول. قال برنارد.

جلس بالقرب منها على السّرير وأمسك بيدها. رمقته بطمأنينة، ثمّ فجأة امتلأت مآقيها بالدّموع. أخذها بين يديه بعناية وتركت رأسها يسقط على كتفه. «ما الذي يمكن فعله، فكّر برنارد، ماذا يُقال؟ أوه! أيّ نذل أكون!». داعب رأسها بيده، خلّل أصابعه في شعرها الطّويل. وراح آليّاً يسلّكُه. كان لديها بقيّة حمّى. «يجب أن أتكلّم، فكّر برنارد، يجب أن أقدر على الكلام».

- برنارد. قالت. ابننا...

وأجهشت بُكاءً وجهاً لوجه. وأحسّ برخاوة كتفيها بين يديه. قال: «كفى، كفى». قال ذلك بصوت حنون. فجأة انتبه إلى أنّها زوجته، مُلكُه،

بأنّها لم تكن إلّا له، أنّها لا تفكّر إلّا فيه، أنّها أوشكت على الموت. أنّها الشّيء الوحيد الذي يملكه وكاد يخسره. واجتاحه إحساس بالامتلاك والشّفقة عليها معاً، شفقة قاسية جعلته يشيح برأسه.

- نولد ونحن نصرخ، ليس هذا اعتباطاً، ما تبقّى ليس سوى تخفيف من الصّرخة. هذا الشّيء الغريب الذي صعد إلى حنجرته والذي تركه بلا قوّة أيضاً. على كتف نيكول التي لم يعد يحبّها كانت عودة الصّرخة الأولى للحظة ميلاده. كلّ ما تبقّى لم يكن سوى هروب، ارتجاف، كوميديا. نسي جوزي لحظة، مأخوذاً فقط بيأسه.

لاحقاً سيواسي نيكول قدر استطاعته. كان رقيقاً، حدّثها عن مُستقبله، عن كتابه الذي أخبرها بأنّه سعيد به. عن أطفال سيأتون قريباً. تمنّت أن تسمّيه كريستوف، اعترفت له وهي تبكي. وافقها، واقترح عليها «آنا». ضحكت إذ من المعروف أنّ الرّجال يحبّذون البنات. إلّا أنّه بحث في تلك الأمسية بالذّات عن طريقة يهاتف بها جوزي. عثر على الحجّة بسرعة، لم يعد لديه سجائر. نقاط بيع التّبغ لديها أهمّيّة خاصّة أكثر ممّا يتخيّل المرء. استقبلته الصرّافة بسرور: «عدتَ أخيراً»، شرب كأس كونياك على الكنتوار قبل أن يطلب قطعة معدنيّة. كان في نيّته أن يقول لها: «أحتاج إليك»، سيكون ذلك صحيحاً ولن يغيّر شيئاً. حين كان يحدّثها عن الحبّ كانت هي تحدّثه عن محدوديّة الحبّ.

- خلال سنة أو شهرين لن تستمرّ في حبّي. وحدها جوزي بين كلّ الذين يعرفهم من لديها الإحساس الكامل بالوقت. الآخرون مدفوعون بحدس عميق يحاولون الاعتقاد في المُدّة، في التوقّف النهائيّ لشعورهم بالوحدة؛ وكان مثلهم.

أدار الهاتف لكنّ أحداً لم يردّ. تذكّر ليلة أخرى كان عليه وهو يهاتفها أن يقع على ذلك الشّخص الفظيع وابتسم بسعادة. يجب أن تكون جوزي نائمة ككلب صيد، فاردة يدها بالقفا على اتّساعها، إنّها الوضعيّة الوحيدة التي تدلّ على أنّها تحتاج إلى أحد ما.

سكب إدوارد ماليغراس الزّيزفون. منذ فترة ولأسباب صحّية صارت بياتريس تشرب الزّيزفون. قدّم لها كوباً ثمّ كوباً آخر لجوليو الذي هتف ضاحكاً بأنّه كريه. وهكذا احتسى الرّجلان السّكوتش. قالت لهما بياتريس بأنّهما مدمنا كحول، واتّكأ برنارد على الكنبة بسعادة. توجّها إلى المسرح حيث كان عليه العودة ببياتريس. ودعت الأخيرة جوليو لتناول كأس أخيرة في بيتها. كان ثلاثتهم في الدّفء فيما كانت تمطر في الخارج وكان جوليو مُضحكاً.

كانت بياتريس غاضبة فقد بدا لها لا يُحتَمَلُ أن يقوم إدوارد بسكب الزّيزفون وأن يلعب دور السيّد في البيت. كان ذلك مُقَوِّضاً. نسيت معرفة جوليو الكاملة بعلاقتهما. لا أحد يهتمّ باللّياقة أكثر من امرأة مُنهكة. نسيت أيضاً أنّها هي التي عوّدت إدوارد على التصرّف بهذا النّحو مُعاملة إيّاه ببساطة كصفحة.

راحت إذًا تتحدّث إلى جوليو عن المسرحيّة، رافضة بإصرار إقحام إدوارد في الحوار، رغم جهود جوليو. والتفت الأخير إلى إدوارد قائلاً:

- كيف تسير الأمور مع التّأمين؟

- جيّدة جدّاً. قال إدوارد.

احمرّ وجهه. يدين بمئة ألف فرنك لمديره أي ما يعادل مُرتّبيْن، ويدين لجوزي بخمسين ألفاً. حاول إخلاء ذهنه لكنّه ظلّ طوال اليوم يعاني اضطرابات حادّة.

- هذا بالضّبط ما أحتاج إليه. قال جوليو دون أن يشعر، عمل كهذا يكون معه المرء في سلام، وليس لديه الهموم الماليّة التي ترافق إنجاز عرض مسرحيّ. لا أتخيّل صورة جيّدة لكِ في مثل هذه الوظيفة، من باب إلى باب أو تقريباً...

ندّت عنها ضحكة صغيرة مُهينة إزاء إدوارد، لم يتحرّك الأخير لكنّه نظر إليها بحيرة، وتابع جوليو:

- أبيع التّأمين بشكل جيّد، لاحظا أنّكما مُخطآن. أستعمل كلّ مهاراتي في الإقناع: «سيّدتي لا تبدين على ما يُرام، ستموتين قريباً، أمّني نفسك كي يتسنّى لزوجك الارتباط ثانية بادّخار مُحترَم».

وانفجر ضاحكاً. إلّا أنّ إدوارد احتجّ بصوت غير واثق:

- على كلّ، ليس هذا تحديداً ما أقوم به، لديّ مكتب حيث يصيبني الملل. وواصل في نوع من إبعاد الشّبهة التي تطبعها في الأذهان عبارة «مكتب»: عملي يتلخّص في ترتيب...

- أندريه. أتريد القليل من السّكوتش؟ قاطعته بياتريس.

رانت لحظة صمت. حاول جوليو القيام بجهد يائس:

- لا، شكراً، شاهدتُ فيلماً رائعاً منذ زمن، عنوانه: تأمين على الموت. هل شاهدتماه؟

السّؤال كان مُوجّهاً إلى إدوارد، إذ إنّ بياتريس لم تكن مُكترثة، كان همّها أن ترى إدوارد يغادر. إنّما بالتّأكيد لن يفعل وسيبقى لأنّ تصرّفات بياتريس تسمح بذلك منذ ثلاثة أشهر. سيبقى وسينام في سريره وهذا يُضجرها بشكل قاتل، إنّها تبحث عن طريقة للانتقام.

- تدري، إدوارد آتٍ من الرّيف.

- شاهدتُ الشّريط في كايان. قال إدوارد.

- كايان هذه، إنّها آية! تداركت بسخرية.

نهض إدوارد مأخوذاً بغثيان خفيف. يبدو مُستغرباً من أن يقسم جوليو على حمل بياتريس على دفع الثّمن يوماً.

واقفاً، تردّد إدوارد. لا يمكنه أن يتصوّر بأنّ بياتريس لم تعد تحبّه، بل إنّ ذلك لا يثير أعصابه؛ إنّها خسارة حياته ولم يفكّر في أمر مماثل أبداً. اكتفى فقط بالقول بصوت مُهذّب:

- أزعِجُكِ؟

- أبداً لا. ردّت بياتريس بفظاظة.

عاد إلى الجلوس. يُعوّل على اللّيل وعلى حرارة الفراش ليسأل

بياتريس. هذا الوجه المقلوب، الجميل، الحزين في الضّوء الخافت، هذا الجسم المهجور سيحمل له أحلى الأجوبة. يحبّ بياتريس جسديّاً رغم نصف برودها. بل بالعكس فقد كان يجد ذلك البرود والجمود اللذين في إيماءاتها الحركات الأكثر لطفاً ورغبة.

يمكث ساعات على مرفقه، شابّ يسحره بشكل قاتل تأمّلها وهي نائمة.

تلك اللّيلة كانت نائية أكثر من العادة، بياتريس لا يعني لها النّدم شيئاً. ذاك هو سحرها. نام بشكل سيّئ وبدأ يُصدّق احتمال تحطّمه.

بياتريس تردّدت في شأن طرد إدوارد لأنّها لم تكن متأكّدة من مشاعر جوليو ناحيتها. لا أحد من قبل أحبّها بتيه، بغياب كُلّي للممانعة وهي تعرف هذا. مع ذلك باعدت كثيراً لقاءاتها به ووجد إدوارد نفسه وحيداً مُهمَلاً في باريس. باريس التي كانت حتّى ذلك الحين مُختَصَرَة في دربين؛ المسافة الفاصلة بين مكتبه عن المسرح وتلك التي تفصل المسرح عن شقّة بياتريس. الجميع يعرف تلك القوى الصّغيرة التي يصنعها الحبُّ داخل المُدن الكبيرة. وسُرعان ما وجد إدوارد نفسه ضائعاً. واصل آليّاً المُضيّ في الطّريق الذي يعرفه، وبما أنّ مسكن بياتريس صار مُحجّراً عليه فقد اتّخذ مكانه في المسرح. راح يشاهد المسرحيّة بأذن شاردة مُترقّباً قدوم بياتريس. ستلعب دور خادمة روحيّة. ستظهر في المشهد الثّاني قائل لرجل جاء يبحث عن سيّدتها قبل الموعد:

- ستعرف يا سيّدي. بالنّسبة إلى امرأة، الأوان هو الأوان عادة. بعد الموعد هو أحياناً الموعد. لكن قبل حلول الموعد فليس هذا أوان الموعد.

بصورة غامضة هذه الجملة التي لا تعني شيئاً تُمَزّق قلب إدوارد. انتظرها، يحفظ عن ظهر قلب المقاطع الثّلاثة التي تسبق الجملة وحين تنطق بها بياتريس فإنّه يُغمض عينيه.

تُذكّره بالزّمن الجميل السّعيد حيث لم يكن لبياتريس مواعيد عمل ولا صداع ولا أمسيات عشاء مع أمّها. لا يجرؤ على القول بينه وبين نفسه: «أيّام كانت بياتريس تُحبّني»، ربّما عن غير وعي أحسّ بقناعة مريرة بالكاد صاغها: «لن يكون في وسعها أبداً أن تقول لي إنّها لم تعد تُحبّني».

خلال فترة قصيرة ورغم تقشّف حادّ فَرَضه على واجباته لن يكون في مستطاعه أن يمنح نفسه كرسيّاً قابلاً للطيّ في أيّ مكان. لقاءاته مع بياتريس صارت نادرة. لا يجرؤ على قول أيّ شيء. كان خائفاً. ولأنّه لا يُتقن التصنّع فإنّ حواره معها كان عبارة عن جملة من الأسئلة الخرساء المشحونة باللّهفة على نحو يزعج المرأة الشابّة بشكل جدّي. من جانب آخر، حفظت بياتريس دورها في المسرحيّة الجديدة لجوليو ولم تعد ترى وجه إدوارد. ثمّ ليس أكثر من وجه جوليو؛ يجدر الإقرار. كان لها دور حقيقيّ، المرآة في غرفتها صارت صديقتها الأثيرة. لم تعد تعكس القامة الفارعة والعنق المائل لشابّ كستنائيّ، بل بطلة مُغرمة في دراما تجري وقائعها في القرن التّاسع عشر.

ولِيُبدّد معاناته ويكبح جموح اشتهائه لجسد بياتريس، راح يجوب باريس مشياً على الأقدام. كان ينجز عشرة أو خمسة عشر كيلومتراً في اليوم عارضاً على المارّات وجهاً نحيفاً، غائباً، جائعاً، كان سيمنحه فرص مغامرات كثيرة لو اعتنى به. لم يكن يراهن. كان يحاول أن يفهم. أن يفهم ما حدث، ما اقترفه كي يفقد منزلته عند بياتريس. لن يدرك أبداً أنّه على العكس يستحقّها أكثر ممّا ينبغي وهذا في حدّ ذاته لا يُغتَفَر. ذات مساء في قمّة معاناته وعلى ريقه إضافة إلى ذلك منذ يومين، وصل أمام بيت الماليغراس. دخل. وجد عمّه جالساً على كنبة بصدد تصفّح مجلّة عروض، الأمر الذي أذهله لأنّ ألان اعتاد أن يقرأ «الصّحيفة الفرنسيّة الجديدة» NRF [17]، تبادلا نظرات دهشة، فقد كان كلاهما مُحَطّماً، دون

17- الصحيفة الفرنسيّة الجديدة NRF: صحيفة فرنسيّة تُعنى بالأدب والنّقد، نُشر عددها الأوّل في شهر نوفمبر لسنة 1909.

أن يعرفا إن كان لأجل السّبب نفسه. دخلت فاني، قبّلت إدوارد، تعجّبت لسوء حالته. كانت على عكسه أكثر شباباً من ذي قبل وأكثر بهجة. لقد قرّرت أن تتجاهل مرض ألان، أن تؤمّ صالونات التّجميل وأن تؤمّن لزوجها بيتاً رائعاً. تعرف جيّداً أنّها وصفة مجلّة سنويّة، لكن بما أنّ الذّكاء لا يبدو أنّ له علاقة بالأمر لم تتردّد. نوبة الغضب الأولى مرّت، همّها الوحيد هو السّعادة، على الأقلّ السّلام لألان.

- صغيري إدوارد، تبدو متعباً، هل هو عملُك في التّأمين؟ يجب أن تعالج.

- أنا جائع جدّاً. اعترف إدوارد.

- اتبعني إلى المطبخ. ما زال هناك الجُبن والجومبون.

كان سيخرج لمّا جاءه صوت ألان. صوت محايد إلى درجة أنّه بدا غنائيّاً.

- إدوارد، هل شاهدتَ هذه الصّورة لبياتريس في الأوبرا؟

تراجع إدوارد، مال على كتف عمّه. كانت صورة لبياتريس في فستان سهرة: «الشابّة بياتريس بـــ.... ستقدّم الدّور الرّئيس في مسرحيّة «ي» بالأثينا Athena [18]».

رمقت فاني ظهر زوجها لحظة. ظهر ابن أخيه قريباً ممدوداً ناحية الصّحيفة، ثمّ استدارت.

نظرت إلى نفسها في مرآة المطبخ وقالت بصوت مرتفع:

- أنا أتوتّر، أتوتّر بشكل غريب عنّي.

- سأخرج. قال ألان.

- هل ستعود اللّيلة؟ سألت فاني بصوت عذب.

- لا أدري.

لم ينظر إليها، لن ينظر إليها. في الوقت الحاضر كان يُمضي اللّيالي في الشّراب مع فتاة حانة المادلين لينتهي به الأمر في غرفتها دون أن

18 - الأثينا: قاعة مسرح في باريس.

يلمسها غالباً. كانت تروي له قصصاً عن زبائنها وكان يُصغي إليها دون أن يقاطعها. كانت لديها غرفة قريباً من محطّة سان لازار Saint Lazar، نوافذها تفتح على عمود إنارة أشعّته تُزخرف السّقف بخطوطها. حين يكون قد أفرط في الشّراب فإنّه ينام فوراً. يجهل أنّ جوليو يدفع للفتاة مقابل مرافقته، فقد أوعز تلك الطّيبة لنوع من الحنان الذي لن يطول بها الأمر حتّى تحسّ به فعلاً ناحية هذا الرّجل المؤدّب. منع نفسه من التّفكير في فاني، فاني التي يشعر بطمأنينة كبيرة كلّما لاحظ مزاجها الرّائق.

- مضى وقت طويل لم تأكل فيه؟

راقبت فاني إدوارد بحنان وهو يلتهم الطّعام، رفع عينيه نحوها وأمام حرارة نظراتها أحسّ بأنّه مغمور بالعرفان. تداعى قليلاً. كان وحيداً جدّاً، تعيساً جدّاً وفاني كانت لطيفة جدّاً.

احتسى بسرعة كأس جعة ليُخلّص حُنجرته من الضّغط الذي ضيّق عليها.

- يومان. قال.

- ألا تملك المال؟

طأطأ رأسه، فغضبت فاني:

- أنت مجنون، إدوارد. تعرف جيّداً أنّ البيت مفتوح لك. تعالَ متى شئت، دون انتظار أن تصير على حافّة الإغماء. هذا سُخف.

- نعم. قال إدوارد، أنا سخيف. ليس سوى ذلك.

أثارته الجعة قليلاً. للمرّة الأولى فكّر في التخلّص من حبّه الذي يحتلّ كيانه بالكامل. هناك أشياء أخرى في الحياة، انتبه. الصّداقة، العاطفة، وخصوصاً تفهّم أناس مثل فاني، هذه المرأة الرّائعة التي كان لِعمّه الحكمة والحظّ في أنّه تزوّجها. انتقلا إلى الصّالون. تناولت فاني كنزة فهي تحيكها منذ شهر. الحياكة هي جُلُّ ما يُواسي النّساء الحزينات. جلس إدوارد عند قدميها، أوقدا النّار. أحسّ كلاهما بأنّه أفضل بكثير.

- ارو لي ما السّوء الذي يحدث لك. قالت فاني بعد برهة.

خطر لها أنّه سيحدّثها عن بياتريس إلّا أنّها انتهت بإبداء فضول من نوع خاصّ تجاه هذه الأخيرة. بدت لها جميلة دائماً، في كامل حيويّتها وغبيّة قليلاً. ربّما شرح لها إدوارد سحرها؟ ثمّ مرّة أخرى لأنّها تشكّ في أنّ ألان لا يُلاحقها هي بل مجرّد فكرة.

- تعلمين أنّنا... أقصد بياتريس وأنا...

تشوّش إدوارد. ندتّ عنها ابتسامة تآمر واحمرّ وجهه واخترقه ندم في اللّحظة نفسها. فقد كان أمام كلّ هؤلاء العاشق السّعيد لبياتريس. لم يعد كذلك. بدأ قصّته بصوت مُمَزّق. كان كلّما حاول أن يشرح، أن يفهم سبب مأساته، كانت القصّة تتّضح أمام عينيه أكثر فأكثر، أخيراً أسند رأسه على ركبتها مأخوذاً بتشنّج مريح.

أخذت فاني تداعب شعره قائلة بصوت غارق: «صغيري المسكين».

خابت لمّا رفع رأسه لأنّها أحبّت نعومة شعره.

- أعتذر منكِ. قال إدوارد بصوت خجول. أنا وحيد منذ فترة طويلة...

- أعرف ما يعنيه ذلك. قالت فاني دون تفكير.

- ألان... نطق إدوارد.

ثمّ توقّف، فكّر فجأة في تصرّف ألان الغريب وفي اختفائه منذ قليل. ظنّت فاني أنّ لديه علماً فحدّثته عن جنون زوجها ولم تنتبه إلى جهل إدوارد بالأمر إلّا أمام ذهوله. ذهول ظلّ عدوانيّاً. فكرة أن يحبّ عمُّه بياتريس ويشتهيها تُرهب إدوارد. عاد إلى رشده، فكّر في آلام فاني وأخذ بيدها. كان جالساً على المقعد الطّويل عند مُستوى ركبتيها. كان مُنهكاً جرّاء السّجن. تقدّم برأسه ليضعها على كتف فاني التي وضعت الكنزة جانباً.

نام قليلاً، أطفأت فاني النّور كي تُيَسّر له نومه. لم تكن تتحرّك، كانت بالكاد تتنفّس. نَفَس الشابّ يقع على عنقها. كانت مُضطربة قليلاً لكنّها حاولت عدم التّفكير.

خلال ساعة استيقظ إدوارد، كان في العتمة على كتف امرأة. حرَكتُه الأولى كانت حركة رجل، ضمّته فاني إليها. ثمّ تتالت الحركات. عند الفجر فتح إدوارد عينيه. كان في فراش لا يعرفه وفي مستوى عينيه فوق اللّحاف ترقُد يدٌ مُسنّة تزدحم فيها الخواتم. أغمض عينيه ثانية. نهض ورحل فيما تظاهرت فاني بالنّوم.

في اليوم الموالي هاتفتْ جوزي برنارد. أخبرته بأنّها ترغب في التحدّث إليه. سرعان ما فهم. ما انفكّ يفهم دائماً. انتبه إلى ذلك أمام هدوئه. كان في حاجة إليها، يُحبّها، لكنّها لا تُحبّه. هذه الاحتمالات الثّلاثة تنطوي على جوهر آلامه، ضعفه، وتتطلّب المحنة وقتاً طويلاً ليتجاوزها.

أيّام پواتيي الثّلاثة هي الهديّة الوحيدة في تلك السّنة، الفترة الوحيدة التي لفرط توهّجها كان خلالها رجلاً. التّعاسة لا تُعلّم شيئاً والخانعون قبيحون.

نزلت أمطار جيّدة، وقال النّاس إنّه ليس الرّبيع. مضى برنارد نحو موعده الأخير مع جوزي، عندما وصل لاحظ أنّها كانت في انتظاره. حدث كلّ شيء كما لو أنّه مشهد مألوف لديه. كانا جالسين على مقعد، وكانت تمطر دون توقّف وكانا ميّتين من شدّة التّعب. قالت له إنّها لا تُحبّه، أجاب بـ «لا بأس». الفقر الذي في جملتها كان من النّوع الذي يجعل الدّمع يصل إلى المآقي. كان ذلك في مقعد من مقاعد الكنكورد La Concorde [19]، التي تبسط هيمنتها على السّاحة ودفق السيّارات اللّامتناهي. أضواء المدينة أصبحت قاسية كذكريات الطّفولة.

تشابكت أيديهما وانحنى على وجه جوزي المبلّل بالمطر. وجهه كان

19 – الكنكورد: ساحة الكنكورد وهي أكبر ساحة في باريس وهي متاخمة للشون إليزيه، كانت في ما مضى تُسمّى بساحة الثّورة. في هذا السّاحة أعدِمت بالمقصلة ماري أنطوانيت ولويس السادس عشر.

غارقاً في العذاب. تبادلا قبلات عاشقين، لأنّهما كانا مثالين عن الحياة المُدَبّرة بشكل رديء، وكان ذلك بالنّسبة إليها سيّان. يحبّ كلاهما الآخر بما فيه الكفاية. والسيّجارة المبلّلة التي عبثاً حاول برنارد إشعالها كانت صورة عن حياتهما. إذ لن يُدركا أبداً، حقيقة، كيف يكونان سعيدين، يعيان ذلك. وبشكل غامض يعلمان أنّ هذا لا يهمّ. لا يهمّ فعلاً.

بعد أسبوع من اللّيلة التي أمضاها مع فاني تلقّى إدوارد في منزله رسالة من مُحضر قضائيّ لدفع ثمن بذلته. لقد أنفق آخر فرنكات لديه على إرسال الزّهور إلى فاني التي بكته بحرقة في غيابه دون أن يعلم. لم يظلّ أمام إدوارد سوى حلّ واحد، كان قبل ذلك قد لجأ إليه: جوزي. أمضى في بيتها صبيحة السّبت، لم تكن هناك، لكنّه وجد جاك غارقاً في كُتُب الطبّ. أخبره أنّ جوزي ستكون هنا للغداء والعودة من ثمَّ إلى دُروسها.

أخذ إدوارد يروح ويجيء في الصّالون. يائساً من فكرة الانتظار. شجاعته تبخّرت. بل لقد بدأ يبحث عن حجّة أخرى لزيارته. التحق به جاك. ألقى عليه نظرة شاملة وجلس قبالته دون أن يعرض عليه سيجارة غولواز. وساد صمتٌ لا يُحتمل.

- لا تبدو مبتهجاً. قال جاك أخيراً.

أومأ إدوارد برأسه. رمقه الآخر بتعاطف.

- ليس هذا شأني لاحظ. لكن نادراً ما صادفتُ أحداً متضايقاً مثلك.

كان هناك ما يدعو إلى التوقّع بأن يُصفّر جاك من شدّة الإعجاب، ابتسم له إدوارد. كان جاك حقّاً لطيفاً. لا يشبه المسرح ولا يشبه جوليو. أحسّ كأنّه يعود طفلاً.

- النّساء. قال باقتضاب.

- صديقي المسكين! قال جاك.

وران بينهما صمتٌ حافل بالذّكريات من الجانبين. سعل جاك:

- جوزي؟

أجاب إدوارد برأسه نافياً. وانتابته رغبة في إبهار مُحاوره:

- لا. مُمَثّلة.

- لا أعرفها.

وأضاف:

- لا يُفتَرَض أنّها من الصّنف السّهل.

- آه! لا. قال إدوارد.

- سأرى إن كان في وسعنا الحصول على كأس.

نهض، وفي طريقه ضرب بحميميّة على كتف إدوارد ضربة أقوى قليلاً ممّا ينبغي وحضر وفي يده قارورة «بوردو»، لمّا جاءت جوزي كانا فَرِحَين، يتعايشان، ويتحدّثان عن النّساء بحرّية.

- أهلاً، إدوارد، لستَ على ما يُرام.

كانت تكنّ لإدوارد معزّة. كان له سحنة الأعزل التي تؤثّر فيها.

- كيف حال بياتريس؟

أشار جاك بحركة باغتها إدوارد. تبادل ثلاثتهم النّظرات وانفجرت جوزي ضاحكة.

- أظنّ أنّ الأمور لا تسير بشكل جيّد. لِمَ لا يتناولان معنا الغداء؟

أمضَوا فترة ما بعد الظّهيرة يتنزّهون في حديقة غابيّة متحدّثين عن بياتريس. تشبّثت جوزي بذراع إدوارد فيما أوغل جاك حاشراً نفسه بين الأشجار، كان يقذف بمخاريط الصّنوبر، مُقلّداً رجل الغاب. دون السّهو عن العودة من حين إلى آخر للحديث عن بياتريس وكيف أنّها تستحقّ الضّرب على مؤخّرتها. نقطة وانتهى. ضحكت جوزي وأحسّ إدوارد بالسّلام. أخيراً اعترف لها بأنّه يحتاج إلى القليل من المال. قالت له بأن لا يقلق.

- ما أنا في حاجة إليه، أعتقد. قال إدوارد، هم الأصدقاء.

جاك الذي عاد للتوّ. قال لها إنّها في كلّ الأحوال خُلِقَت له. شعرت جوزي بالفخر. ثمّ منذ ذلك اليوم صاروا يقضون الأمسيات معاً. أحسّوا بأنّهم أصدقاء، شباب وسعداء ما يكفي.

إلّا أنّه رغم السّلام الذي يمنحه إيّاه حضور جاك وجوزي في حياته فقد كان يُحبطه من ناحية أخرى.

حسَب الرّواية التي قدّمها لهما عن علاقته ببياتريس مُؤخّراً، شخّصا

أن لا أمل له. في حين لم يكن هو قد حسم في ذلك. كان أحياناً يرى بياتريس بين عرضين. وحسب الأيّـام كانت تقبّله بشوق، تُسمّيه «كعكتي»، أو أنّها لا تنظر إليه وتتظاهر بأنّها مشغولة. وقرّر أن يكون له قلب نقيّ، وإن كانت هذه العبارة تبدو خاطئة.

وجد بياتريس في مقهى مواجه للمسرح. جميلة كأفضل ما يكون، لأنّها مُتعبة، وشاحبة وعلى وجهها ذاك القناع التراجيديّ النّبيل الذي يعشقه. كان أحد أيّام الشّتات بالنّسبة إليها. تمنّى لو أنّه يوم من أيّام الرقّة حتّى يحظى بفرصة الاستماع إليها وهي تردّ عليه: «بلى أحبُّك.»، مع ذلك قرّر أن يُكلّمها:

- المسرحيّة تسير جيّداً؟

- عليّ القيام بالبروفات طيلة الصّيف. قالت.

كانت مُتعجّلة للذّهاب. كان على جوليو أن يمرّ لأجل العرض. لا تعرف بعدُ إن كان يحبّها أم يشتهيها أم أنّها مجرّد مُمثّلة في نظره.

- يجب أن أقول لك شيئاً. قال إدوارد.

طأطأ رأسه. وقعت عيناها على شعره النّاعم الذي طالما لَذَّ لها مُداعبته. لقد بات الآن لا يُمثّل لها شيئاً.

- أحبّكِ. قال دون النّظر إليها. أعتقد أنّكِ لا تحبّينني أو لم تعودي تحبّينني.

كم ودّ لو أنّها أجابته على هذه النّقطة بالذّات، تلك التي إلى ذلك الحين ما زال يشكّ فيها. أيُعقل أنّ كلّ تلك اللّيالي، التنهّدات، الضّحكات...؟ لم تجب. نظرت إلى أعلى من رأسه.

- أجيبيني. قال أخيراً.

لا يُمكن لهذا أن يدوم أكثر، لتَنطِقْ! كان يتعذّب وكان يعقد يديه تحت الطّاولة. بدت كأنّها قادمة من حلم. فكّرت: «يا للقرف!»، «صغيري إدوارد يجب أن تعرف أمراً. لم أعد أحبّك هذا صحيح، فيما لقد أحببتُك كثيراً».

انطبعت لديها أهمّية كلمة «كثيراً» في الأحاسيس. رفع إدوارد رأسه.

- لا أصدّقك. أجاب بحزن. تبادلا النّظرات. لم يكن ذلك يحدث غالباً. ودّت لو صرخت في وجهه: « نعم، لم أحبّك أبداً. ماذا بعد؟ لِمَ قد أحبّك؟ لِمَ قد يحبّ المرء شخصاً ما؟ أتعتقد فعلاً أنّه ليس لديّ ما أقوم به عدا هذا؟» فكّرت في مشهد مسرحيّ، كئيبةً تحت الأضواء الكاشفة، أو في مكان مظلم، وغمرتها نفحة سعادة.

- حسناً، لا تصدّقني. تابعت، لكنّي سأكون دائماً صديقة مُقرّبة مهما يحدث. أنتَ كائن رائع إدوارد.

قاطعها بصوت منخفض:

- لكن ليلة...

- ماذا يعني «ليلة» ؟ أنت...

قاطعت نفسها. كان قد رحل. مشى في الطّرقات كالمخبول قائلاً: «بياتريس، بياتريس»، وكانت به رغبة في خبط نفسه على الجدران. يكرهها، يُحبّها، وذكرى ليلتهما الأولى معاً تُفقده توازنه. سار طويلاً قبل أن يصل إلى جوزي. أجلسته، قدّمت له كأس نبيذ كبيرة، لم تُكلّمه، نام كحجر. عندما استيقظ كان جاك قد عاد، خرج ثلاثتهم وعادوا ثملين جدّاً إلى شقّة جوزي حيث شغلوا غرفة الأصدقاء. سيظلّ معهم حتّى حلول الصّيف. كان لا يزال يحب بياتريس ومثل عمّه تماماً كان يقرأ أوّلاً صفحة العروض في الجرائد.

نزل الصّيف على باريس كصخرة. كان كلّ منهم يتابع دروس شغفه أو عاداته الدّفينة وكانت شمس حزيران النّاضجة تجعلهم يبدون كحيوانات ليليّة. كان لا بدّ من الرّحيل والعثور على خاتمة أو معنى للشّتاء الذي مضى. اكتشف كلّ منهم تلك الحرّية، تلك الوحدة التي يمنحها اقتراب العطلة. كلّ منهم كان يتساءل مع من وكيف سيكون عليه أن يُواجهها.

وحدها بياتريس الغارقة في عروضها نجت، ليس دون شكوى في هذا الشّأن. أمّا ألان ماليغراس فكان يشرب بشكل مهول وكانت بياتريس

هي حجّة اضطرابه. لقد أضحى من عاداته القول: «عملي يعجبني ولَدَيّ زوجة فاتنة، وحياة جميلة، ماذا بعد؟»، أمام هذا الـــ «ماذا بعد» لا أحد يلمس في نفسه القدرة على الردّ.

اكتفى جوليو ببساطة بأن يشير إليه بفوات الأوان على ذلك التّعبير. إنّما لن يكون متأخّراً أبداً أن ينغمس في الشّراب. هكذا اكتشف ألان ماليغراس شكلاً من أشكال الاختلال ووسائل لمعالجتها عادة ما يستخدمها الشّباب الصّغار في السنّ: البنات والكحول. هنا يكمن قلق الولع الكبير المُبكّر بالأدب؛ سينتهي به الأمر إلى أن يقذف بك في دوّامة قلق أصغر، متوقّدة أكثر وأخطر لأنّها متأخّرة.

لقد استسلم مع إحساس كبير بالرّاحة كما لو أنّه أخيراً وجد السّلام. حياته كانت عبارة عن سلسلة ثائرة من اللّيالي، لأنّ صديقته جاكلين تدفع بالعلاقة إلى حدّ إبداء الغيرة أحياناً وكان ذلك يُسعِدُه، وسلسلة من أيّام غيبوبة. «أنا مثل غريب بودلير. قال لبرنارد جَزِعاً، أُشاهد الغيوم، الغيوم السحريّة».

فهم برنارد أنّه يحبّ تلك الفتاة، ولم يفهم أنّه يحبّ تلك الحياة. ثمّ إنّه يُضاف إلى ذلك إحساس طاغٍ بالرّغبة، ودّ هو أيضاً لو أنّه انغمس في الشّراب ونسي جوزي. لكنّه يعرفُ جيّداً أنّه لن يتمكّن من الهرب.

ذات ظهيرة، زار فاني لشأن متعلّق بالشّغل، وذُهِل بنحافتها، من هيئة التأهّب التي صارت عليها. عرّجا طبعاً على الحديث عن ألان، لأنّ إدمانه لم يعد سرّاً. أمّن برنارد عمله في المكتب وكانت دهشته أكبر من أن تتّخذ الأمور منعرجاً معيّناً.

– ماذا عسى أن أفعل؟ قال برنارد.

– لا شيء. قالت فاني بهدوء. ثمّة جانب كبير في شخصيّته لا أعرفه ولا يعرفه هو نفسه بلا شكّ. أظنّ أنّ شخصين يعيشان مع بعضهما إذا جاوزا العشرين عاماً فإنّهما يتحوّلان إلى اثنين يجهلان بعضهما بعضاً...

مالت ملامح وجهها نحو سحنة شجن هزّت برنارد. أخذ يدها واندهش من حمرة وجهها ومن القوّة التي سحبت بها يدها من بين يديه.

- ألان يمرّ بأزمة. قال. لا شيء خطير...

- بدأ كلّ شيء مع بياتريس، لقد جعلته يعتقد أنّ حياته فارغة...

- نعم، نعم، أعرف. قالت بوهن، أنا رفيقة جيّدة.

فكّر برنارد في قصص ألان عن حياته الجديدة: التّفاصيل، المعاني التي يضفيها على الأحداث الصّغيرة السّافلة لحانة المادلين. قبّل يد فاني ورحل. في السُّلّم اعترض إدوارد الآتي لزيارة فاني، لم يخوضا أبداً في شأن ليلتهما. شكرته فقط بصوت محايد عن الزّهور التي أهداها إيّاها في اليوم التالي. جلس فقط عند قدميها وراح يُحدّق عبر باب الشّرفة في شمس حزيران العنيفة وهي تجثم على باريس. كانا يتحدّثان عن الحياة، عن الرّيف، بشرود وبرقّة، لم يكن ذلك ليمنع فاني من أن تبالغ في مسحة نهاية العالم التي تحملها. إدوارد عند قدميها سلّم نفسه لألم - أخذ يتشوّش- وانزعاج عنيف يكفي لجعله يزور فاني كلّ ثلاثة أيّام كما لو أنّه يتأكّد من أنّه لم يُسبّب لها الأذى. وبنوع من الارتياح والسّرور يلتحق بعدئذٍ بشقّة جوزي. يجد جاك يكاد يُجنّ من القلق بشأن الاختبارات التي أنجزها ويجد جوزي منهمكة في قراءة الخرائط، إذ إنّ عليهم الذّهاب إلى السّويد ثلاثتهم آخر شهر حزيران.

غادروا في الموعد المُحدّد. من جهتهم لبّى الماليغراس دعوة عند بعض الأصدقاء في الرّيف. قضّى ألان أيّاماً يفضّ القوارير. وحده برنارد أمضى الصّيف في باريس يشتغل على روايته فيما ظلّت زوجته نيكول في بيت والديها للرّاحة. أمّا بياتريس فقد قطعت عروضها لتلتحق بأمّها على ضفاف المُتوسّط حيث خلّفَت بعض الدّمار. باريس الخاوية تصدح بخطوات برنارد التي لا تكلّ. على هذا المقعد قبّل جوزي للمرّة الأخيرة، في هذا الحانة هاتفها تلك اللّيلة المُفزعة التي لم تكن فيها وحدها. هناك توقّف مغموراً بالسّعادة عشيّة عودتهما ظنّاً منه أنّه أخيراً أمسك بطرف حكاية ما...

مكتبه كان مُغبرّاً تحت أشعّة الشّمس، كان يقرأ كثيراً وفترات سلام كثيرة تمتزج بشكل غريب بهوسِه. كان يسير نحو الجسور الذهبيّة اللّون صحبة حسراته وذكرى حسراته. پواتيي الماطرة تستيقظ أحياناً على طريقة باريس المتألّقة. ثمّ عاد الآخرون في أيلول؛ التقى جوزي خلف مقود سيّارتها وركنت على جانب الرّصيف لتحدّثه. كان متّكئاً بمرفقه على الباب المقابل، كان ينظر إلى وجهها النّحيف الأسمر بسبب كثافة الشّعر حوله، وفكّر في أنّهما لن يتداركا شيئاً أبداً.

– أجل، مرّت الرّحلة كأفضل ما يكون، كانت السّويد جميلة. ألقى بنا إدوارد في خندق لكن لا بأس لأنّ جاك... توقّفت. لم يقاوم برنارد ردّة فعل مسعورة:

– سأبدو لكِ فظّاً، لكنّي حقّاً أرى أنّ هذه السّعادة الهادئة لا تليق بكِ.

لم تُجب، بل ابتسمت له بحزن.

– أعتذر منك. لستُ مؤهّلاً للحديث عن السّعادة، هادئة كانت أم لا، ولا أنسى أنّي مدين لك بالسّعادة الوحيدة هذه السّنة...

وضعت يدها فوق يده. يداهما لهما الشّكل نفسه، فقط يد برنارد كانت أكبر ، هذا كلّ شيء. لاحظ كلاهما ذلك. غادرت وعاد هو إلى بيته. نيكول كانت سعيدة بفضل اللّطف والهدوء اللذين يستمدّهما من حزنها. كان الأمر كذلك دائماً.

مكتبة
t.me/t_pdf

«بياتريس. الآن»

خرجت بياتريس من الظلّ، إلى بقعة الضّوء في الفناء، مدّت يدها. «لا يدهشني أنّها فارغة، فكّر جوليو فجأة، كان لديها كلّ هذا الفضاء، كلّ هذا الصّمت لتؤثّثه كلّ يوم، لا يجوز أن نطلب منها...».

– قُل... إنّها تُبلي جيّداً.

الصّحافي بجواره كانت عيناه مسمّرتان على بياتريس.

كانا آخر عرضَيْن، وجوليو يعرف بعدُ أنّ: بياتريس ستكون اكتشاف السّنة وربّما ممثّلة كبيرة.

- هلّا قدّمتَ لي بعض المعلومات عنها.

- ستعطيك بنفسها ما تحتاج إليه. لستُ سوى مدير لهذا المسرح.

ابتسم الصحافيّ. باريس بأسرها تدري بعلاقتهما. كان جوليو يأخذها إلى كلّ مكان. لكنّه كان ينتظر الجنرالة، حبّاً في الجوّ الرّوائي قبل أن يمنح «شرعيّة» لعلاقتهما، عكس بياتريس التي ترى أنّ الأطهر هو أن يكون لها عشيق. لو لم يكن قد تفطّن إلى تسوية مريحة بينهما لحملت له ضغينة قاتلة.

- كيف تعرّفت إليها؟

- ستروي لك ذلك بنفسها. إنّها تروي بشكل جيّد.

فعلاً كانت بياتريس جيّدة أمام الصّحافة. كانت تجيب عن الأسئلة بمزيج من الألفة والسُّمُوّ الذي يجعل منها «سيّدة مسرح»، لحسن الحظّ أنّها لم تكن معروفة بعد، لم تقم بسينما، وتبدر منها فضيحة.

قدِمت نحوهما مبتسمة، قدّم جوليو أحدهما للآخر.

- أترككما؛ بياتريس، أنتظرك في بار المسرح.

ابتعد. تبعته بياتريس بعينيها بنظرة طويلة تعمّدت أن تُؤكّد بها للصحافيّ شكوكه، ثمّ عادت إليه.

بعد نصف ساعة التحقت بجوليو الذي كان يشرب كأس «جين»، صفّقت لهذا الاختيار وطلبت مثلما طلب. كانت تشربه بمصّاصة رافعة من حين إلى آخر عينين غامضتين نحو جوليو. أحسّ الأخير أنّه بدأ يشفّ، أنّها كانت لطيفة مع تمثيليّاته، طموحاته الصّغيرة المُرَكّبة عنوة! كم أنّ طعم النّجاح مُضحك في سرك الوجود! شعر أنّ وجدانه كونيّ.

- يا للفخر، عزيزتي بياتريس، جهودنا في هذه الأيّام...

استغرق في خطاب طويل، يعشق ذلك؛ كان يُفسّر لها مدّة عشر

دقائق، أنصتت إليه بانتباه ثمّ لخّصت له كلامه في جملة قصيرة حكيمة وشاملة بشكل رائع حتّى تظهر له أنّها فهمت قصده. «على أيّ حال ما دامت لخّصت كلامه فهذا يعني أنّه قابل للتّلخيص». وككلّ مرّة يضع فيها إصبعه على رداءته، سعادة وحشيّة تجتاحه.

– هذا صحيح. قالت، لسنا بالشّيء العظيم. لحسن الحظّ أنّنا نجهل ذلك غالباً. وإلّا لما أنجزنا شيئاً.

صمت جوليو قائلاً:

– نعم صحيح، أنتِ كاملة، بياتريس.

قبّل يدها، وقرّرت أن تتوصّل إلى تفسير؛ هل يشتهيها أم إنّه شاذّ جنسي.

لا ترى بياتريس للرّجال مخرجاً ثالثاً.

– أندريه، هل تعلم أنّ ضجيجاً مثيراً يجري بشأنك؟ أقول لك هذا بدافع صداقة.

– ضجيجاً مثيراً حول ماذا؟

– حول –طأطأت رأسها– حول عاداتك.

انفجر ضاحكاً.

– وهل صدّقتِ ذلك؟ عزيزتي بياتريس، كيف أُثبت لك العكس؟

كان يسخر منها. فهمت ذلك في لحظة، تبادلا النّظرات بثبات ثمّ رفع يده كما لو أنّه يلفت انتباهها إلى ألق ما.

– أنتِ جميلة جدّاً ومُغرية جدّاً. أتمنّى يوماً ما أن تسمحي لي بالتّعبير عن ذلك بإسهاب.

مدّت يدها نحوه تحت الطّاولة بحركة مَلَكيّة وحطّت شفتاه فوقها بمرح.

لا شكّ في أنّه يهوى عمله.

الفصل 10

أخيراً جاء مساء الجنرالة. بياتريس كانت واقفة في حجرتها؛ نظرت إلى تلك الغريبة التي ترتدي المُطَرّز؛ رمقتها بامتعاض، إنّها هي التي ستُقرّر مصيرها. كان ضجيج القاعة المكتوم قد بدأ يصلها، لكنّها أحسّت بأنّها مُتجمّدة. كانت في انتظار أمر ما لا يأتي أبداً. لا يختلف عنها بقيّة الممثّلين. تعلم ذلك جيّداً. إلّا أنّها لا تملك إلّا أن تشاهد نفسها وهي تعيد آليّاً الجملة الأولى من الدّور:

- هو مرّة أخرى! ألا يكفي أنّي حصلت على عفوه؟...

لا شيء حصل. اليدان رطبتان قليلاً، وانطباع عبث. لقد قاومت كثيراً وفكّرت طويلاً في هذه اللّحظة. يجب أن تنجح؛ جلست، صوّبت خصلة شعر.

- أنتِ مُذهلة!

جوليو دخل الحجرة للتوّ مُبتسماً مرتدياً بذلته الرّسميّة. اقترب منها:

- خسارة أن يكون لدينا هذا الالتزام. كم وددتُ أن آخذك للرّقص.

هذا الالتزام!... عبر الباب تسلّل الضّجيج وفهمت فجأة. «هم» ينتظرونها. ستكون الأنظار مُثبّتة عليها، كلّ ذلك الذّباب المُتَوَحّش الثّرثار. انتابها الخوف. أخذت يد جوليو وضغطت عليها. هو شريكها، لكنّه سيتخلّى عنها قريباً تاركاً إيّاها وحدها. لوهلة كرهته. «يجب أن ننزل» قال.

صاغت المشهد الأوّل على نحو تستقبل معه الجمهور مُشيحة

بظهرها لدى رفع السّتار. سيكون عليها أن تتكئ على بيانو ولن تلتفت إلّا بعد جملة زميلتها الثّانية. يدري لماذا: سيكون هو نفسه خلف باب مقابل كي يرى تعبير وجهها حين يُرفَعُ السّتار وراءها. يهمّه ذلك أكثر من نجاح المسرحيّة. كيف سيُبلي الحيوان بياتريس؟

ركّزها أمام البيانو واتّخذ مكانه. صدحت النّقرات الثّلاث. سمِعَت انزلاق السّتار. كانت تنظر إلى طيّة خاطئة في المنديل الذي على طرف البيانو. في الوقت الحاضر «هم» يرونها. مدّت يدها وصحّحت الطيّة. ثمّ بدا أنّ أحداً غيرها التفت قائلاً:

– هو مرّة أخرى! ألا يكفي أنّي حصلتُ على عفوِه؟

انتهى كلّ شيء. جاوزت نهر السين؛ نسيت أنّ المُمثّل الذي أدّى معها هو عدوّها اللّدود لأنّه حصل على دور بأهمّية دورها؛ نسيت أنّه شاذ. تحبُّه، يجب أن تنال إعجابه، كان لديه ملامح الحُبّ. لم تكن حتّى ترى الكتلة الدّاكنة التي تتنفّس على يمينه، إنّها تعيش أخيراً.

لاحظ جوليو حادثة المنديل. للحظة حَدَس أنّ بياتريس ستجعَلُه يعاني يوماً. ثمّ في آخر الفصل الأوّل وتحت تصفيق الجمهور عادت سليمة، مُتسلّحة حتّى الأسنان[20] ولم يتمالك نفسه من الابتسام.

كان نصراً. جوزي كانت مسرورة. كان لديها دائماً انجذاب ممتع ناحية بياتريس. ألقت نظرة مُستفهمة على إدوارد الجالس على يمينها. لم يبدُ أنّه تحمّس بشكل مُعَيّن.

– عن نفسي، أحبّذ السّينما لكن لم يكن هذا سيّئاً. قال جاك.

ابتسمت له؛ أخذ يدها وتركته يفعل هي التي تكره أن تُظهر شيئاً أمام النّاس. مضى خمسة عشر يوماً لم يرها خلالها فقد كان عليها الالتحاق بوالديها في المغرب. التقى بها في تلك الظّهيرة لدى بعض الأصدقاء بعد

---

20 – مُتسلّحة حتّى الأسنان: تعبير فرنسي يعود استخدامه للقرن الخامس عشر يوصف به من باب المبالغة والسخرية الشخص الذي يحمل السّلاح حتّى في أماكن يُفترض أنها لا تصلح لذلك.

إتمام دروسه. كانت جالسة عند باب شرفة مفتوح، إذ كان الجوّ مُنعِشاً ورأته يلقي بمعطفه في المدخل قبل الدّخول مُسرعاً إلى الصّالون. لم يتحرّك، لمّا رآها راودته فقط ابتسامة لا يمكن منعها بدأت تتكوّن على شفتيه وتوقّف لمّا رآها، بالابتسامة المؤلمة نفسها تقدّم نحوها وأثناء خطواته الثّلاث التي تفصلهما عرفت أنّها تُحبّه. طويل، أحمق قليلاً، عنيف. وبينما كانت بين ذراعيه مررت يدها على شعره الأشقر بفكرة واحدة في ذهنها: « أحبُّه، يُحبّني، هذا لا يُصدّق.»، عندئذٍ صارت تتنفّس بلطف شديد.

- بدا أنّ ألان يوشك أن ينام. قال إدوارد.

طبعاً، جاء ماليغراس للمسرح مُرتَعشاً لرؤية بياتريس بعد الأشهر الثّلاثة التي قضاها كالمرمر. هذه الغريبة التي تضطرب ببراعة عالية على الخشبة لا شيء يربطها به. كان يبحث عن سبيل للالتحاق بحانته بعد نزول السّتار. ثمّ إنّه يشعر بالظمأ. انتبه إدوارد بذكاء إلى ضرورة دعوته إلى تناول كأس سكوتش خلال الفترة ما بين الفصول. لكن خلال الثّاني لم يجرؤ على النّهوض. فاني لم تعد تُعلّق، لكنّه كان يُخمّن أفكارها: ستنطفئ الأضواء ثانية. أطلق زفرة. كان كلّ ذلك رائعاً. تعلمُ أنّ ذلك كان رائعاً. قيل لها ذلك كثيراً. لكنّه يقين لا يصلح لشيء بالنّسبة إليها. ربّما استيقظت غداً على هذه الكلمات ترقص في فمها مع يقين بأنّها أخيراً أصبحت بياتريس ب ... اكتشاف السّنة. لكن ذاك المساء...

ألقت نظرة على جوليو الذي رافقها إلى شقّتها. قاد السيّارة بهدوء مُخلّفاً انطباعاً بأنّه غارق في التّفكير.

- ما رأيُكِ في النّجاح؟

لم تردّ. النّجاح هو سلسلة النّظرات الفضوليّة التي صادفتها في كلّ مكان خلال العشاء، تلك التي تعقّبت الجنرالة، سلسلة الجُمَل الشّائنة التي نطقت بها وجوه معروفة، سلسلة الأسئلة. كان ذلك فوزاً. لقد فازت بشيء ما. وتعجّبت كيف يكون البرهان على ذلك مُشتّتاً بهذا الشّكل.

وصلا إلى أسفل البناية.

- أيمكنني الصّعود؟

فتح لها جوليو باب السيّارة من جهتها. كانت متعَبة بجنون لكنّها لم تجرؤ على الرّفض. كلّ ذلك كان منطقيّاً بلا شكّ. بيد أنّها لا تهتدي إلى إقامة العلاقة بين ذاك الطّموح، تلك الإرادة التي لم تترك لها مجالاً للرّاحة منذ شبابها الأوّل حتّى الأمسية التي تتوّج كلّ هذا.

من سريرها راحت تراقب جوليو الذي أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً مُتخفّفاً من السّترة. كان يتحدّث عن المسرحيّة. يليق به أكثر من أيّ شيء آخر أن يتحدّث عن مسرحيّة اختارها وأخرجها وحضر بروفاتها مدّة ثلاثة أشهر.

- أشعر بعطش فظيع. قال أخيراً.

أشارت إليه في اتّجاه المطبخ. لاحظته يخرج بكتفين ضيّقين، بنوع من النّشاط. لاح لها لحظة جسمُ إدوارد الطّويل المحنيّ وخالجها النّدم. ودّت لو أنّه بجانبها الآن. أن يكون بجانبها أيّ كائن شابّ لتنتشي معه خلال تلك الأمسية بالذّات، لتضحك معه كما لو أنّ ما حصل نكتة هائلة. شخص في وسعه إعادة الحياة إلى كلّ هذا. غير أنّه لم يكن هناك سوى جوليو وتعليقاته السّاخرة، وعليها قضاء اللّيلة معه. امتلأت عيناها بالدّموع، أحسّت فجأة أنّها ضعيفة وشابّة جدّاً. الدّموع تصفع خدّها، وراحت تُكرّر في داخلها أنّ كلّ هذا رائع. عاد جوليو، لحسن الحظّ فإنّ بياتريس تتقن البكاء دون أن تتغيّر ملامحها.

في قلب اللّيل استيقظت. ذكرى الجنرالة سرعان ما عاودتها. لكنّها لم تعد تفكّر في نجاحها، كانت تفكّر في الدّقائق الثّلاث التي رُفع فيها السّتار، حيث استدارت، حيث تجاوزت أمراً مُهمّاً بحركة جسمها تلك. تلك الدّقائق الثّلاث ستكون ملكاً لها كلّ مساءٍ في الوقت الحاضر. وخمّنت بصورة مُلتبسة أنّها ستكون الوحيدة الصّحيحة في وجودها بأسره، إنّه قسطها.

ثمّ عادت إلى النّوم بوداعة.

الفصل 11

الاثنين الموالي أقام الماليغراس أمسية كالمُعتاد، كانت أوّل أمسية منذ الرّبيع، حضر برنارد ونيكول، بياتريس المنتصرة بتواضع، إدوارد، جاك، جوزي، إلخ. كانت سهرة سعيدة بقوّة.

ألان ماليغراس كان يترنّح قليلاً، غير أنّ أحداً لم يكترث.

في لحظة وجد برنارد نفسه بجانب جوزي مُستندين إلى جدار مواجه، يراقبان البقيّة.

لدى سؤاله لها، أشارت بذقنها للعازف الشابّ تحت حماية فاني الذي اتّخذ مكانه خلف البيانو وبدأ يعزف.

- أعرف هذه الموسيقى، همست جوزي، إنّها بديعة.

- إنّها موسيقى العام الماضي نفسها. أتذكرين، كنّا هنا، جميعنا، وكان يعزف المقطوعة نفسها. ربّما لم تخطر له أفكارٌ أخرى. نحن أيضاً. لم تُجبْ.

نظرت إلى جاك في الجانب الآخر من الصّالون.

تابع برنارد مسار نظراتها.

- يوماً ما لن تظلّي تحبّينه. قال بهدوء، ويوماً ما لن أظلّ أحبّكِ بدوري. وسنكون وحيدين من جديد ومن جديد ستكون هناك سنة أخرى لتمضي...

- أعرف ذلك. قالت.

وفي الظلّ أخذت يده، ضغطت عليها لحظة دون أن تُحوّل بصرها عن جاك.

– جوزي. قال، مُستحيل. ماذا فعلنا كُلُّنا؟... ماذا حدث؟ ماذا يعني كلُّ هذا؟

– لا يجب البدء في التّفكير بهذه الطّريقة. قالت برقّة، هذا يؤدّي إلى الجنون.

***

مكتبة
t.me/t_pdf

#920

مكتبة | سُر مَن قرأ

telegram @t_pdf

«نولد ونحن نصرخ، ليس هذا اعتباطاً، ما تبقّى ليس سوى تخفيف من الصّرخة»، هذا الشّيء الغريب الذي صعد إلى حنجرته والذي تركه بلا قوّة أيضاً. على كتف نيكول التي لم يعد يحبّها كانت عودة الصّرخة الأولى للحظة ميلاده. كلّ ما تبقّى لم يكن سوى هروب، ارتجاف، كوميديا. نسي جوزي لحظة، مأخوذاً فقط بيأسه.

لاحقاً سيواسي نيكول قدر استطاعته. كان رقيقاً، حدّثها عن مُستقبله، عن كتابه الذي أخبرها بأنّه سعيد به. عن أطفال سيأتون قريباً. تمنّت أن تسمّيه كريستوف، اعترفت له وهي تبكي. وافقها، واقترح عليها «آنا». ضحكت. إذ من المعروف أنّ الرّجال يحبّذون البنات. إلّا أنّه بحث في تلك الأمسية بالذّات عن طريقة يهاتف بها جوزي. عثر على الحجّة بسرعة، لم يعد لديه سجائر. نقاط بيع التّبغ لديها أهمّيّة خاصّة أكثر ممّا يتخيّل المرء. استقبلته الصرّافة بسرور: «عدتَ أخيراً»، شرب كأس كونياك على الكنتوار قبل أن يطلب قطعة معدنيّة. كان في نيّته أن يقول لها: «أحتاج إليك»، سيكون ذلك صحيحاً ولن يغيّر شيئاً. حين كان يحدّثها عن الحبّ كانت هي تحدّثه عن محدوديّة الحبّ...